المُشْتَهِي

عنوان الكتاب: المَشْتَهِي

المؤلف(ة): إدريس لفريك

الطبعة الأولى: 2021

رقم الإيداع: 978-9931-896-27-2

النّاشر: دار ومضة للنشر والتوزيع والترجمة

إيميل: wamdaedition@gmail.com

Dar.wamda7@gmail.com

هاتف: 00213657300415 / 034 54 49 88

المقر: جيجل - الجزائر

المدير العام: سميرة قنون

المدير التنفيذي: ليلى لوكريف

تدقيق وإخراج فني: فريق ومضة

تصميم: إيمان عبد الحكيم

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الآراء الواردة في الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

يمنع نسخ أو استعمال الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية

أو أية وسيلة نشر أخرى من دون إذن خطي من الناشر

إدريس لفريك

المُشْتَهِي

رواية

دار ومضة
للنشر والتوزيع والترجمة

إهداء

إلى الجميل عمر الودغيري، أهدي هذه الرواية.

الواحدة بعد منتصف الليل . . .

آمل أن تصلك هذه الرواية دون أن ينقص منها حرف واحد .

مرة أخرى إلى رشيد لفريك

"رشيدوز " تعلم أنني أحب أن أناديك هكذا، دعني أخبرك فقط أن الحياة التي أَحْبَبْنَاها صارتْ مريضة. شاق هو الفراق ومع ذلك يجب علينا أن نتدرب على العيش وكأننا لمْ نفترق يوماً .

إ. لفريك

لماذا لمْ أترك لنفسي أية مساحة للعودة إلى الوراء؟

تيثريت، هذا هو اسمي.

ولا أعرف لماذا اختار لي أبي هذا الاسم؟ لا أحدَ سواه يعلم.

ولدتُ صدفة بين جبال الأطلس المتوسط في قرية صغيرة تسمى أجدير، ذات شتاء من سنة 1968. طولي الآن لا يتجاوز المتر والسبعين في ما أعتقد، ووزني يناهز السبعة والستين كيلوغراماً، هذا إن لمْ يكن أقل، لأني منذ مدة طويلة لمْ أقس وزني. لا أتّبع أي حمية غذائية. ويقال إنني أدخن بشراهة.

ها أنذِي اليوم حرة ولا شيء يهمني سوى أن أظل حرة لأطول فترة ممكنة، وأكتشف العالم على اتساعه اللامتناهي، وأعرفه بنفسي ولا شيء آخر. على كل أستطيع في هذه اللحظة أن أروي ما وقع لي مع المشتهي، بكل شجاعة، ودون خوف. أستطيع أن أقول إنني صرت سيدة نفسي وبالطريقة التي أشتهيها، وأستطيع أيضاً أن أخبركم أنني مهددة بالقتل في أية لحظة. الناس الذين سببتُ لهم الأذى كثر ورأسي مطلوب عند أكثر من جهة.

في الحقيقة لمْ أكن أتوقع أن تلك اللعبة المسلية ستنقلب خطيرة إلى هذه الدرجة. الموت الأسود يتربص بجسدي من كلّ الجهات، وهذه الثانية التي أكتب فيها قد تكون آخر ثانية في حياتي.

قبل نصف ساعة تقريباً وصلتني مكالمة هاتفية من شخص مجهول يطالبني بحذف تلك الصور وإلا سينتهي أمري. وقد منحني مهلة عشرة

أيام، وفي حقيقة الأمر لا أتوقع أن هذه المدة كافية لأكتب قصتي قبل أن يباغتني الموت ويتمكن مني القتلة.

أكثر من ذلك كلّه يمكنني أن أعترف بكل الأخطاء التي اقترفتُ في الزمن الذي مضى دون الشعور بالندم أو الحرج. الآن أشتهي فقط أن أحكي لكم قصتي لأنني أتوقع أنها تستحق أن تحكى لما فيها من أحداث غريبة.

اِسم أمي ماماس وتعني العطوفة الحنونة وهي كذلك كانت امرأة عطوفة وهشّة. هي لا دخل لها بهذه الحكاية، لذلك لنْ أقول عنها شيئاً آخر، سأكتفي باسمها فقط. اِسم أبي الحسين آيت عمور وقد كان أحد شهداء أحداث مولاي بوعزة التي وقعتْ في الرابع من مارس سنة 1973 حينما هاجمت مجموعة مسلحة تنتمي إلى التنظيم السري لحزب الاتحاد الوطني للقوات الشعبية على ثكنة عسكرية تقع بمنطقة مولاي بوعزة، لكن المغامرة انتهت بمحاصرة مجموعة المقاتلين الثوريِّين، وتمّ تبادل الرصاص في فجاج الأطلس وسفوحه ولقي حينها أبي حتفه في تلك المواجهة، ونعتته البيانات الرسمية التي كان يكتبها النظام الملكي الحاكم بزعيم الإرهابيين. يقال إنَّ أبي كان هو مهندس الثورة التي انتهت قبل بدايتها. وهو من كان يسرب كميات ضخمة من الأسلحة ووضعها رهن إشارة من نعتهم النظام بأفراد الخلية، ونسب إليه أنه هو من حاول اغتيال أحد كبار القادة في الجيش بمدينة الرباط، عندما أطلق عليه ثلاث رصاصات محاولاً قتله وذلك بعد نهب سيارة استعملها لهذه العملية.

ربما قصة أبي تستوجب جهداً جباراً للإحاطة بشخصيته ونضاليته ونهايته المأسوية هو ومن معه. وأنا بصراحة لا أملك ذلك الجهد والوقت

لأكتب عن بطل مثله، عن شهيد هذه البلاد التي انتحر من أجلها لكنها نسيته ونسيت اسمه، حتى قبره غير معروف على حدّ قول أمي. ويقال أيضاً إنَّ وزارة الداخلية آنذاك أصدرت بلاغاً تخبر فيه بمقتل زعيم الكوماندوهات الإرهابية، وألحت أيضاً على أن لا يعرف قبره حتى يمحو الموت وجوده من الذاكرات ونجحت في ذلك. اليوم لا أحد يتذكر اسم الحسين آيت عمور.

حكايتي ليست مهمة لكنها غريبة وتكاد لا تصدق. سأحكيها مع إهمال بعض التفاصيل الصغيرة نظراً لضيق الوقت، على الرغم أنني مؤمنة بأن التفاصيل الصغيرة والهامشية هي التي تشكل الفرق في كل شيء محيط بنا. سأعترف في البداية أنني إنسانة كسولة لا تتحمل الجلوس لفترة طويلة خلف طاولة الكتابة وسريعة الملل والضجر. وأفقد شغفي بالأشياء دون سابق إنذار، وفي أحيان كثيرة أركب رأسي وأحاول تجريب فعل بعض الأمور التي لا تخطر على بال عاقل. لدي ردود أفعال باردة جداً اتجاه ما يقع حولي. لا أتفاعل بالشكل الذي يجب مع ما يحاصرني. أتصرفُ بعبثية في معظم الأوقات، وهذا ما يجعل مني امرأة غامضة يصعب تصديقها. بعض الأصدقاء المقربين يجدون صعوبة في معرفة طبيعة ما أشعر به. هل أنا حزينة أم سعيدة؟ هل أنا خائفة؟ هل أشعر بالوحدة؟ هل أشعر بالملل والفراغ؟

أعلم تماماً أن هذا الاعتراف رغم صغره إلا أنه ليس في صالحي، ولا في صالح ما سأكتب. ورغم علمي المسبق أنكم لا تصدقون الحكاية وإذا صدقتموها فسيكون بصعوبة كبيرة. سأحكي لكم ما حدث معي منذ كنت في السادسة من عمري إلى حدود هذه اللحظة التي يكسوها الضباب والرهبة والخوف من المجهول. سأحكي كل شيء بصدق لا مُتَنَاهٍ وكل ما

أريده في هذه اللحظة هو أن تطاوعني اللغة ويمنحني القدر المزيد من الوقت.

اسمحوا لي أن أنطلق من هذه النقطة التي تبدو غير واضحة في ذاكرتي، إلا أنني ما زلتُ أحتفظ ببعض الصور رغم شتاتها وقلتها، وأذكركم ببعض التفاصيل حتى لا أبدو ثقيلة أكثر مما ينبغي.

قبل أن أبدأ يحدث معي وأنا أحكي أن أتذكر ملامح المشتهي الأول الذي صادفته في مسيرة حياتي، الرجل الأول الذي اشتهى شَفَتَيَّ. في الواقع لا أتذكر ملامحه كثيراً لكنني أتذكر نظرة عيونه.

تحملوني قليلاً على هذه البداية المباشرة والجافة. في الواقع لا أحبّ التلاعب بالكلمات، وأحاول قدر الإمكان أن أكتب قصتي دون مراوغة ودون زخرفة لغوية. كان من الممكن جداً أنْ أكتب في أول صفحة مثلاً:

"هنا أنا فقط لأراك. لا رياح تخيفني ولا لمسة الذئاب على جسدي. تعبتُ من المفردات التي تذهب وتعود في سماء الحكاية التي فقدتْ كل ما كان لها من ألق ودهشة، وكم من دهشة تلزمني لأكتب عنك؟ وكم يلزمني من عمر لأبحث عن كفيك وأنام في عمقهما؟ ولماذا دوماً تسرقني منك غفوة النوم؟

كيفما كانت رعشتي بين يديك، فأنا أحتاج حضنك اليوم، قبل أن تطوح بي الأقدار نحو دروب غيابك، وكيفما كان الهبل الذي يسكنني، أشتهيك ولا شيء أكثر. لمْ أكن أعرف أن صدفة صغيرة ستدفنني إلى الأبد فيك، بل لمْ أدر يوماً أن قصتنا صنعتها بجنوني وشهوتي يمكن أن تصبح غياباً وتخون مواعيدي وتتلاشى مثل دهشة البدايات التي تمر مشبعة بالحنين. يا رجل الأقدار المشتهى لو كنتُ أعرف أن تلك اللحظة التي

سرقتنا وأوجعتنا في غفلة منا، كنت سبقتها وأسكنتك فيّ، كنتُ لك دوماً وكنتُ دوماً لغيري وفشلتُ في أن أكون إلا إليك.

خُذْني أيها المشتهي يا هبلي الأعظم بين ذراعيك، ودعني أنصهر فيك وبك ومعك. كيف أضعك في قلبي دون أنْ أخسر نفسي. فهل تدرك أنك أصبحت بعيداً؟!".

تراني أعي في هذه اللحظة فقط أن قصتي لا تحتاج كل هذا الحنين والشجن والكلمات الرنانة التي لا تقدر مطلقاً على إيصال قصتي للقارئ دون أن تشعره بالكثير من الضجر والملل.

سأكتب بلغة عارية كما أردتها. صادقة كما ينبغي وموجعة أيضاً.

***

حدث ذلك قبل زمن بعيد جداً، كنتُ في السادسة أو السابعة من عمري. كنت في الكُتاب القرآني الذي كنا نتعلم فيه نحن أبناء القرية القراءة والكتابة وبشكل خاص حفظ القرآن وتعلم اللغة العربية وإتقانها، كان الفقيه الذي يعلمنا يملي علينا بعض الآيات ونحن نكتب بأقلام من القصب والصمغ على اللوح الخشبي، لا زلت لا أصدق كيف حفظت القرآن من آخره إلى أوله، لأننا كنا نستظهره من سورة الناس إلى سورة البقرة ولا أعرف سبب ذلك، حفظته من إملاء الفقيه بصوته وأنا كنت أكتب على اللوح الخشبي الصغير بخط يدي، ثم بعد أن أستظهر الآية أقوم بمحوها.

تلقيتُ تعليمي الأولي في الكُتاب، وتعرفت فيه أول مرة على حروف اللغة العربية، ما زلت أتذكر إلى اليوم عقوبة "الفلقة" التي كان لي نصيب منها، إذا ما تكاسلت عن الحفظ أو عن الذهاب إلى الكُتاب، كان الفقيه

علي رجلاً لا يضحك إطلاقاً ولا يبتسم حتى، كان عابساً طول الوقت وشارد الذهن.

في اليوم الذي ختمت فيه حفظ القرآن، أقامت لي ماماس حفلة صغيرة، رددنا فيها أناشيد من قبيل "كلام الله علينا" وغيرها من المدائح النبوية، أحسست يومها أنني حققت شيئاً كبيراً برقت له عيون مماس، كنت لحظتها مثقلة بالفرح والحزن في نفس الوقت.

ذلك الحزن الطفولي جعلني لا أفهم تفاصيل ذاتي بدقة، كنت شاردة أفكر في الفقيه علي عندما وضعني على حجره وراح يقبل شَفَتَيَّ ويمص لساني بقوة ويحك قضيبه المنتصب على ساقي، بعد أن غادر كل أطفال القرية إلى بيوتهم، حينها لمْ أكن أستوعب حقيقة ما كان يقع، كنت مكتفية بالصمت والنظر إلى عينيه المعمشتين، نظرته كانت تشع بطريقة لمْ أعهدها، ملامح وجهه كانت مختلفة، كان فيه شيء من الخوف واللذة، كان يستلذ بتقبيلي بينما كنت أكاد أختنق من رائحة فمه الكريهة.

ومنذ تلك الحادثة التي وقعت يومها والتي ما زالتْ إلى هذه اللحظة تنهش جسدي كديدان الجثث، صرت أرفض الذهاب إلى الكُتاب، بحجة أنني مريضة ورائحة الصمغ واللوح الخشبي تخنقني، أقنعت ماماس بعد جهد كبير بتوقفي عن حفظ القرآن، لم أخبرها بالحقيقة لأنني خفت أن لا تصدقني وتتهمني بالكذب. احتفظت بالسر في أعماق صدري ولم آخذ الأمر بجدية، وواصلت طفولتي بشيء من التناسي.

ذلك الحادث الذي يبدو عادياً، غير كل شيء جاء بعده، حولني من طفلة اندفاعية تريد أن تجرب كل شيء إلى طفلة منطوية على نفسها وعلى

جسدها ومنطفئة، ربما كان يجب عليَّ أن أفضح الفقيه علي لكن هذا هو الذي حدث بكل تفاصيله.

لست أدري لماذا تذكرت في هذه اللحظة بالضبط الكُتاب واللوح الخشبي وأخي الصغير الذي لا يعرف وجه أبي الذي قتل عبثاً في معركة لمْ يخطط لها كما يجب قبل مولده بأربعة أشهر تقريباً، وأشجار الأرز الطويلة التي تحيط بأجدير من كل الجوانب والتي كلما كنت أحاول تَسَلُّقَهَا كانت تزداد طولاً وشموخاً، والوشم على وجوه نساء القرية، لماذا مرت بي كل هذه الأشياء دفعة واحدة؟

هكذا تحولت في سن مبكرة الى كتلة لحم محروقة، في ذلك المساء بكيت بشكل طفولي لم يكن مهماً أن أخبر ماماس عن سبب بكائي، المهم كان هو أنني فطنت إلى أن تلك الحادثة التي جمعتني بالفقيه علي، كانت جريمة كاملة الأوصاف اقترفها في حقي وفي حق أمي وفي حق سكان القرية البسطاء جميعاً.

في لحظة ما، لا أستطيع ضبطها، شعرت بتوعك ومغص في الأمعاء، رأيت حينها في عيني ماماس خوفاً ملتبساً وغامضاً. احتضنتني بين ذراعيها وراحت تردد في سرها آيات من القرآن، وصممت على أن أقرأ سورة الناس عشر مرات في سري، كي أبطل عين الحسد التي أصابتني، في تلك اللحظة كنت قد نسيت كلّ ما حفظته من القرآن، ولم أعد أتذكر إلا ملامح الفقيه، لم أعد أفرق بين صوتها وصوته، عندما رفعت عيني صوبها كانت ماماس منطفئة، شعرت وكأنني غبت عن الوعي ثم عدت فجأة لأجد الفقيه علي يجلس بالقرب ويضع يده المرتجفة على جبهتي، فزعت من ذلك المنظر، وسرت رجفة باردة بكل جسدي، قمت من مكاني هرعت نحو

ماماس، ثم رميتُ بنفسي في حضنها وأخفيت وجهي بين ثَدْيَيْهَا. لم أقل شيئاً كنت أسترق النظر إلى وجه الفقيه الذي تكاثرت انثناءاته التي كانت تخبئ بينها تقاسيم رجل مغتصب هزمته شهوته سهواً وسقط في الخطيئة التي لا تغتفر ولا تنسى.

أستطيع أن أقول الآن إن قَلْبِي مُتعب وأجنحتي مكسورة وإن لمْ أكتب عن المشتهي سينفجر رأسي وسأخسر ما تبقى مني وأخسر ما تبقى لي. سأحاول للمرة الأخيرة إقناع نفسي بضرورة الكتابة عن حكاية المشتهي الذي مرّ في حياتي، هو ليس مشتهياً واحداً هم مجموعة من الرجال ربطتني بهم علاقة شهوة ومصلحة لا أكثر. لكل واحد حكاية، ولكل واحد منهم تفاصيله التي تميزه عن الآخرين، لكل واحد منهم أثر كبير في حياتي.

يمكن أن أكون بهذا الفعل أتهور وأشعل حول نفسي مشاكل كبيرة أنا في غنى عنها تماماً، على الأقل في هذه المرحلة المهمة لاسيما وأنا على بعد خطوة من النهاية.

ربما أكون مخطئة، لكن الشيء الوحيد الذي أعلم أنه صواب هو أن المشتهي الذي صادفته كان يملأ كل خوائي. فهل كنت ضحية له أم كان ضحية لي؟

***

للحظة شعرت بالملل من الكتابة وتوجهت إلى النافذة المطلة على مبنى البرلمان، رأيت الساحة الصغيرة وقد غابت عنها طيور الحمام التي كانت تزورها كل يوم. أين ذهب الحمام؟ لا أحد يعرف.

رأيت الباصات المكتظة وأطفال المدارس وكسالى الشوارع والمقاهي، العين لا تَرَى إلا حركة الناس وهي تتحول شيئا فشيئاً إلى بحر من الأمواج

المتلاطمة، الشارع متعب والناس كذلك، وأنا وسط هذا الضجيج أمشي جيئة وذهاباً بدون مقصد واضح. اختلطت بداخلي أصوات كثيرة وقبل أنْ أدقّق في طبيعتها اختفت فجأة. تغلب عليّ الشعور بالخوف وقلب حياتي رأساً على عقب، رغم أنّ هذا التشبيه مكرّر ومستهلك لكنّه يصف حالتي بالضبط.

عدتُ بخطوات مثقلة بشيء غامض لا أعرفه صوب طاولة الكتابة. حملتُ القلم مرة أخرى وكتبتُ دون تفكير أو تركيز. " انتهت قصتي مع المشتهي الأول ولا أعرف حتى هذه اللحظة ماذا كان عليّ أن أفعل ولمْ أستطع.

غادر الفقيه بيتنا دون رجعة، بعد أن شعر بغرابة تصرفي تجاهه واتجاه أمي وغادر معه خوفي وهلعي. لكنْ ملامح وجهه القبيح ونظرات عيونه الحمراء ظلت محفورة في أعماق ذاكرتي إلى اليوم.

***

في مُنْعَطَفٍ آخر التقيتُ بالمشتهي الثاني، والذي كان أستاذي في السنة الثالثة إعدادي، كان يدرسني مادة اللغة العربية، كنتُ حينها في السادسة عشرة مِنْ عمري مراهقة بأحلام كبيرة جداً، تشبثتُ به كالعلقة وبطريقة استعصى عليَّ فهمها. لمْ أكن أتوقع أن تخدعني الكلمات التي كان يكتبها لي على دفتر الواجبات المنزلية صباح كلّ يوم جمعة، وتجعلني معلقة بين المسافات البعيدة، في هدأة نبرة صوته استمعتُ لهمسه ونمت في لغته. هو الذي كان يقول " كلما حلمنا أكثر أضحت الحياة أكثر طراوة، ويمكن أن تعاش ببساطة". كان يحاول أن يعلمني كيف أحلم، وكيف أتقبل فكرة أن تشاركني فيه امرأة. وكيف أكتفي به للحظات كانت تمرّ سريعة أكثر مما

ينبغي، كان الأستاذ والذي تعمدت أن لا أكتب اسمه الحقيقي هنا لأسباب خاصة، يأخذني إليه كما كان يشتهي، كنتُ معه شابة شقية من قصص لمْ أخلق لها ومن حلم ينتظم على إيقاع خطاه.

كانت لغته انتحاري، عرفني على شعراء العصر الجاهلي واحداً واحداً، عرفني على أوس بن حجر، وعلى الجميح الأسدي، وعلى امرئ القيس، وطرفة بن العبد، وزهير ابن أبي سلمى. أسكنني عالمه الشهي المثقل بقصص لا يحكيها إلا في حضرة النشوة. سافرتُ فيه حيث شئت، اكتشفتُ أسراره وكشف لي عن مخاوفه وأحزانه وهفواته وأمراضه وأحلامه.

أتوقع أنه لمْ يتعب بعد من أسفاره التي لا تنتهي والتي كانت تسرق كل احتمالات الحياة، كان دائم السفر والترحال بين الأزمنة والأمكنة والروايات والقصائد، كان مهووساً بالأدب والكتابة والتأليف، وكنتُ أنا المراهقة المدهشة منه حدّ الصمت، أراقب حركات يديه ولمعة عينيه وتفاصيل جسده بنظرة عاشقة لا تعرف عن الحبّ الشيء الكثير، أحسّ اليوم أنّه سرق مني إلى الأبد ولا أملك حياله إلا اليأس. سرقته مني الخطيئة والدنس والانتكاس الذي جاء في غير وقته.

كم أنا مفعمة به ومثقلة بأبيات الشعر التي كان يكتبها لي من حين لآخر، حتى صرت أحفظ الكثير منها عن ظهر قلب، وأردّدها كلما سمحت لي الفرصة على أحدهم، قال لي يوم كست الثلوج الأرض وتبعثر بياضها على قمم جبال الأطلس العالية.

لَهَا مقلة لو أنها نظرت بها إلى راهب قد صام لله وابتهلْ
لأصبح مفتونـًا مُعنّى بحبها كأن لم يصم لله يومـًا ولم يُصَلْ

كلامه يومها ألبسني الدفء ودثرني في عزّ البرد والقنوط، ومنحني فرصة للحياة وركض بي على حواف الدنيا كالمجنونة، وجعلني لا أرى أحداً غيره، أستغرب الآن كيف كنت أستوعب شعره وأفهم كلامه المرموز وأنا لم أَتَعَدَّ المرحلة الإعدادية.

بدأت قصتي المجنونة مع المشتهي الثاني، في زمن لا أتذكر تاريخه أو لعلني لا أريد أن اتذكر تاريخه، بعد أن أنهيتُ دراستي في المرحلة الابتدائية التي دامت مدة ستِّ سنوات، انتقلتُ من أجدير إلى خنيفرة لمواصلة مسار ي الدراسي، وكانت تلك هي المرة الأولى التي أبتعد فيها عن ماماس وأترك القرية، وأنسى شيئاً فشيئاً رائحة الأرض التي كبرتُ فيها ورائحة حضن أمي التي كانت رافضة الفكرة من الأساس وكانت تفضل أن تزوجني لابن عمي.

ماماس لمْ تكن على استعداد لتفارقني في تلك الفترة، كانت بيننا رابطة أمومة قوية، يوم ودعتها شعرت بدموع محرقة تفضح عيني، رغم أنني حاولت أنْ لا أبدو أمامها مهزومة وضعيفة وغير قادرة على فراقها، حاولت أنْ أتظاهر ببعض الصلابة وأنْ لا أبكي كي لا تبكي هي أيضاً، كنت أمام أول اختبار لي مع قسوة الحياة والبعد والمسافات، كنت حينها مثل غيمة في سماء يتيمة، كلمة واحدة جاءت من قلبها أوقفت زخم العواطف الهشّة التي كانت تجتاحني دون توقف، "آه يا تيثريت"

هززت لها رأسي وابتسمت ابتسامة ساخرة، لست أدري لماذا ابتسمت بتلك الطريقة، وفي لحظة ما لم تعد ملامحي تفور بالحياة كما قلبي حين قالت

وهي تبتسم: "سأفتقدك" ثم خفت صوتها وشابه بعض الحزن لما أضافت: وماذا عنك؟

ارتبكتُ قليلاً قبل أن يتوه صوتي ويضيع في الكلمات التي كنت أبحث عنها، ثم قلت بعد صمت قصير: إنني لا أستطيع أنْ أمنع دموعي أكثر، لا أريد أن أبكي يا ماماس.

تأملتني للحظات طويلة ولما عانقتني عادت إلى روحي، وشعرتُ فجأة وكأن هذه المرة هي المرة الأولى التي يتعانق فيها جسدانا. أحسستُ بدفء غريب وبشيء لا أعرف له اسماً ولا صفة، سوى أنه وهبني سعادة لمْ أجرب مثلها من قبل.

اليوم أقول يا ليتني عانقتها أكثر بكثير مما فعلت، ليتني شبعت منها عناقاً، كم تبدلتُ في هذا العمر وقد شارفت على أربعينياتي، لكنني ما زلت رغم ذلك أحمل بداخلي الكثير من الاحتياج إلى حضن ماماس، ما زلت إلى اليوم أحسّ بنقص كبير.

كلما تذكرت ذلك اليوم أصير أتذكّر معه أشياء أخرى، أتذكر جدتي التي كنت أراها وأنا صغيرة وهي تضحك وتهزّ كَتِفَيْهَا دون صوت، أتذكر الوشم الأخضر على وجهها المنهك. أتذكر جدران بيتنا الطيني الصغير الذي لم تكن تتجاوز مساحته الخمسين متراً مربعًا، إلا أنني كنت أراه كبيراً وشاسعاً جداً ولم أنتبه يوماً وطول سنوات طفولتي إلى أنّه صغير جداً عكس ما كنت أحسّ.

أتذكّر زوجة عمي التي كانت تزورنا من حين لآخر ، وقد اِسْتَحَالَتْ وحيدة إثر رحيل زوجها، أتذكرها وهي تجلس إلى جانب أمي وهي تمدّ رجليها وتمسّد عليهما بلطف، وتفعل ذلك مرات عدة، قبل أن تعود إلى

بيتها. أتذكر أنني رأيت الثلج الأبيض ولمسته ونمت في حضنه، منحتني أجدير كل شيء، فكيف لي أن أنسى تفاصيل القرية التي كبرت فيها وأن لا ألتفت صوبها عندما تمر بي؟ وأنا أرى ما لا يراه غيري فيها. أجدير امرأة فاتنة تقف على الحافة باستقامة أبطال الأساطير، وتنام تحت الثلج الملون وثقل الغيم والسماء، في شجرها الطويل الناعم شيء من روح الله ومن إبداعه.

لاحت صور أولئك النسوة أمامي، وتذكرت أمي وهي تحيك الصوف وتغني موالاً حزيناً لا زلت أحفظه إلى اليوم *" أصبح الناس مثل ضباب يوزع قطرات نداه على سفح قاحل، ليأتي الخريف فجأة ويتبخر كل شيء، أيها القمر أطلق سراح همي ليصير كل شيء على ما يرام لم نحرث أي شبر لكي نحصد شيء ما"*

لست أدري ما الذي جعلني أتذكر كل هذه الأشياء. أتساءل إن كان ثمة ما يزال شخص أتكئ عليه اليوم؟

لا أدري لماذا أحببت الأستاذ بذلك الاندفاع الغريب والمخيف، وكيف أحببته، صراحة لا أعرف ولم أجد إلى اليوم جواباً عن هذا السؤال. أتذكر تلك اللحظة الأولى التي رأيته فيها، يومها خيرني بين حلَّين: إمّا أنْ أكون عشيقته السرية أو أغير المؤسسة كي لا يلمحني كل يوم أمامه، قلت له: سأكون عشيقتك التي لا ترفض لك طلباً، هو لم يجبرني على شيء ذهبت معه برضاي، ودخلتُ معه في علاقة جنسية كاملة، وأدخلني عالمه السري الصغير، اختطفني في عزّ اشتعالي وعلّمني أنّ الجسد ليس مكاناً للخطيئة، جعلني أكتشف جسدي بشكل باكر جداً، فهمتُ على يده كيف يمكنني أن أكون حرة ولو قليلاً.

لكنني في المقابل كنت في أعماقي أقاوم ملامح ماماس التي كانت تحضر في ذهني من حين لآخر، كنت أحاول تجاوز نظرات عيونها الحزينة، وأنا أغيب وأندفن في حضن الأستاذ، كان يكفيني أن أسرق ليلة بكاملها معه في بيته حين تكون زوجته غير موجودة، كنت أتسلل في المساء من السكن الطلابي الذي كان مخصصاً لنا نحن تلاميذ المناطق البعيدة، وأمضي صوب بيته الذي لمْ يكن بعيداً كثيراً عن دار الطالبات.

في أول مرة اقتحمتُ بيتهُ، انتابني شعور عصي على الإدراك، أحسستُ وكأنني وسط مكتبة، كانت الكتب موجودة في كل زاوية من زوايا البيت، كان يملك عدداً كبيراً منها لدرجة يصعب التركيز على شيء آخر غيرها، حتى إنّني الآن لا أذكر شيئاً من بيته سوى الكتب ورائحة الورق التي لم تفارقني مطلقاً، والتي كلما شممتها تذكرتُ بيت الأستاذ، وتذكرت حكايتي معه والتي لولا رائحة الكتب وبعض القصائد التي كان يكتبها لي بخط يده لقلتُ إنَّ ما حدث لي معه هو مجرد حلم لا أقل ولا أكثر.

كان بيته دافئاً جداً، كان فيه شيء من الألفة، وقفتُ على حافة الارتباك أمامه وجهاً لوجه أول مرة دون أن تكون بيننا مسافة، اكتشفتُ فجأة لذّة الصمت، شعرتُ به وهو يضبط وقفتي التي لمْ تكن متزنة من شدة الدهشة الممزوجة بالخوف، ثم بدأ يتحسس برؤوس أصابعه ملامح وجهي البارد، وأنا كنت ما أزال على حافة في التباس بين أن أنظر إلى عينيه أم إلى أصابع يده التي ما تزال إلى اليوم تنسج على وجهي آلاف الحكايات.

كان بيته هادئاً جداً، كان فيه الكثير من النشوة، اقترب مني أكثر مدّ يده إلى خصري، لمْ أمانع. كنت في حالة انخطاف ولمْ أكن أحسّ بأي شيء ولكن فقط شممتُ رائحته التي كانت تشبه رائحة الورق، وكنت تلك هي

أول مرة أكون فيها بين أحضانه، فكرتُ في لحظة من اللحظات أن أرجع إلى سريري في سكن الطالبات، لكنني خفتُ أن أزعجه بتصرفي، وخفت أيضاً أن أخسره إذا ما رفضتُ له طلباً، لم أكن في حاجة إلى النظر في ملامح وجهه لأن كل تركيزي كان منصباً على حركات يديه، كان يتحسس جسدي بشهوة كبيرة، وكان علي أن أصمت فقط، أن أصمت وأتماهى مع أنفاسه الساخنة وهي تتمازج مع أنفاسي التي كانت غير قادرة على الانتظام. كنت في قمة التوتر، صحيح أنني لم أقم بأي ردة فعل في تلك اللحظة التي قبلني فيها، ولكني متأكدة من أني كنت منتشية حدَّ الإغماء.

لم أتساءل كثيراً. أنا أعرف أنّ المشتهي الثاني والذي كان أستاذي، أنني كنت أشتهيه مثلما كان يشتهيني وربما أكثر، ومنذ تلك الليلة الأولى التي جمعتني به في فراش واحد والتي فض بكارتي فيها، أطلق علي لقب الهرة، أحببتُ اسمي الجديد بل حتى إنّني صرتُ أفضله على الاسم الذي وهبني إيَّاه أبي تثريت.

عند منتصف تلك الليلة المليئة بالدهشة والجنون وقبل أن نغرق في النوم الذي كان يرفض أن يرهق جفوني، كتب لي الأستاذ قصيدة من خمسة أبيات على قصاصة ورق، وطلب مني أن أحتفظ بها بعد أن قرأها لي بصوت ما تزال نبرته الفخمة محفورة إلى اليوم في أعماق ذاكرتي:

إنّي علقت الأحمدين كليهما كيما يكون هوى الفؤاد هواهما
تربان قد كسيا الملامة كلها وغـــذاهما في نعمـــة أبواهمـــا
قمران بل شمسان بين غمامة فهما هواي من الأنـام هما هما
وهما اللذان إذ يقال تمن لي لم أعد من حور الظباء سواهما

فعلى الملاح من البرية كلّهم مني السلام إلى الممات عداهما

تعبتُ وأنا أحاول فك حروف تلك الأبيات، لكنني فشلتُ في معرفة المقصود من وراء تلك العبارات التي كانت آنذاك أكبر من فهمي البسيط.

تخيلوا مراهقة في السادسة عشرة من عمرها، تعشق مدرسها الذي يكبرها بعشرين سنة أو أكثر قليلاً. أي هزة عنيفة تلك التي رمت بي في عالم رجل لا يقول شيئاً إلا وأضاف بعده بيتاً من الشعر؟ أي صدفة عجيبة تلك التي شبكت كل شيء وخططت لهذا الإعجاب اللا متناهي برجل طويل القامة وسيم وأنيق دائماً؟

كنت أبذل مجهوداً كبيراً للحديث معه، كانت الكلمات تتحرك في رأسي بصعوبة كبيرة، كان بيني وبينه حالة التباس وغموض والكثير الكثير من الانتظارات، يبدو أنَّ كلَّ الأشياء التي كانت بيننا، كانت آيلة إلى الزوال، رغم أنني كنت أحس معه أن الحياة يمكن أن تعاش بجدارة أكبر، فتحت عيني على اتساع الدنيا من خلاله ومن خلال كلماته وأفكاره وأشعاره. معه كنت أحاول ترميم طفولتي عبثاً. رأيتُ فيه أبي الذي لا أعرف عنه الكثير سوى تلك المشاهد القليلة التي أخزنها في ذاكرتي.

عندما خطوتُ الخطوات الأولى داخل غرفته، أيقنتُ بشكل من الأشكال أنني أمام رجل تسكنه الكتب. شيء غامض صار يتوهج فِيّ شيئاً فشيئاً، أدركتُ منذ الخطوة الأولى أنَّ التفاصيل الصغيرة والكثيرة هي ما يشكل هذا الرجل المطبق على صمته، وكان الصمت هو ما يجعل منه الرجل المشتهى، نظراته لي وحدها كانت تقول إنه المشتهي، هو هكذا يستحقُّ أن يُحبَّ دفعة واحدة، رجل مثله تغويك ملامحه ومشيته ونبرة

صوته ونظرة عينيه ورائحة جسده ورائحة بيته وكتبه وفراشه. يأخذك سحره على حين غفلة، فينسيك حذرك وينسيك وصايا أمك وقبيلتك.

لكن عليك أنْ تظل مستعداً للخسارة أمام رجل مثله في أية لحظة، وأن تدفع ثمن الغواية والسحر من عمرك. رجل مثله لا يمكن للقدر أنْ يضرب لك معه موعداً عفوياً هكذا بكل بساطة. أحياناً عندما أتذكر تلك الليلة الأولى يتملكني شعور لا تقدر اللغة بكل سحرها على وصفه، أهذا الحدّ كنتُ عاشقة ومصابة به؟ كنتُ أتمنى لو كنتُ أكبر بقليل لقلتُ له أشياء كثيرة لمْ تسعفني اللغة لقولها له وقتها.

ليلة واحدة لا أكثر كانت تساوي العمر بكل أشجانه، لا أدري كيف لهذه الذكرى التي قطعت عشرين سنة أن تبقى هي هي، وأن لا تخدشها قساوة الزمن، وكيف ملأني وجه الأستاذ مرة أخرى وهو يقول في ذلك الزمن الذي مضى للأبد:

أصابكَ عشقٌ أم رُمِيت بأسهم فما هذه إلا سجيّة مغرمِ
ألا فاسقني كاساتِ راحٍ وغنِّ لي بذكر سُليمى والكمان ونغّم
فدَعْ عنكَ ليلَى العامرية إنّني أغار عليها من فم المتكلم

ما زالت هذه الأبيات مربكة منذ أن سمعتها للمرة الأولى، وقتها لمْ أفهم فيها الشيء الكثير ولكن فيما بعد أدركتُ معناها، وأدركت أنني كنت على علاقة مع رجل لم ينتفِ بداخلي إلا ليزداد قرباً، ولمْ يرحل إلا بعد أن أغلق وراءه كل شيء، وتركَ أمامي عمراً ومهالك كثيرة كان على أن أقاومها وحدي دون سند. لمْ يكن في نيتي أن تأخذ قصتي مع المشتهى الثاني ذلك المنحى المخيف والجنوني، ولم أنسَ أبداً أن قصتنا انتهت قبل أن أشبع منه، وكان صعبًا عليّ أن أحمله في ذاكرتي مدة عشرين سنة. في قلبي خيبة كبيرة

من الرجال الذين لهم تلك السطوة اللغوية وذلك الحضور الباذخ. أضحيتُ أخاف اللغة التى تجرنا صوب المهالك والمتاعب والأعطاب الكبيرة، وكان الأستاذ أحد تلك الأعطاب التى لم تشف إلى اليوم. ما زلت أحمله في صدري كتهمة. وأظن دائماً أنه كان بإمكاني أن أنقذ نفسى من الموت بين يديه، لكن لم أفعل. وتركتنى أواجه قدراً مروعاً كان ينتظرني خارج حدود بيته الذي كانت تفوح منه رائحة الورق.

فى نهاية الأسبوع عدتُ إلى أجدير، وكان الثلج قد بدأ ينزل خفيفاً ويلف البيوت الصغيرة شيئاً فشيئاً بوشاحه الأبيض حتى تندفن فيه كلية، والرياح كانت تهب قوية من جهة الشمال باردة جداً وبردها يلسع البدن ويدخل الروح فيما يشبه الاكتئاب، أجدير قرية صغيرة لفرط عزلتها نكست كلّ رايات المتعة ولبستْ حدادها الموسمى الأبيض، وصارت قاب قوسين أو أدنى من التجمد أو الموت.

أجدير ليست حجارة فقط، هى الرحم الأولى التى خرجتُ منها وأبصرتُ النور، وهى الأرض التى مست قدماي ترابها ومشيتُ أولى خطواتي فوق حصاها، هى النبع الذى شربتُ منه، هى مسقط رأس الأحلام الأولى، أجدير مساحة من الضوء.

ها أنا أتجرأ اليوم وأكتب عن قريتى التى أحبها وأعبر نحو شَطَط الذاكرة البعيدة، أتذكر فى ذلك اليوم البارد أن ماماس كانت تنتظرني عند عتبة الباب، كان الهواء رطباً وكانت ماماس دافئة وهادئة، قرأتُ الدهشة والشوق في عينيها، قلت لها وأنا أدفن رأسي في صدرها:

- توحشتك بِيّا.

ولا أعرف كيف غمرتنى الرغبة في البكاء، عاندتُ دمعى لكن هزمنى الدمع وبكيتُ بحرقة في حضن ماماس، وفي حضنها تذكرتُ أننى فقدتُ عذريتى وخنتُ الثقة التى وضعتها فيّ "يمّا "، هل أستطيع أن أقول لها منكسة الرأس، عندما تسألنى عن سبب بكائى، أننى لمْ أعد طفلة بريئة، وأقول لها اِغفري لي يا ماماس فقد أخطأتُ في يقينى، فأنا لستُ قوية بما يكفى لمواجهة الدنيا، وأخطأتُ في حقك كثيراً، وهذا الذنب الذي اقترفته في حق نفسى أولاً موجع جداً، وكلما تذكرته أصبح ثقيلاً وقاسياً وموجعاً أكثر، ولا أدري إن كان الاعتراف كافياً للشفاء منه. لا أدري إن كان عليّ فعلاً أن أبحث عن الكذبة الأقل ألماً على قلب ماماس؟ أم أخبرها بالحقيقة كما هى والتى حتماً ستكسر قلبها وظهرها. وتجعلنى صغيرة في عينيها بل وحقيرة أيضاً. آه كم أشفق عليها وكم أخاف على وجهها الذي أنهكه البرد من الصدمة.

قالت ماماس وهى تضمنى بقوة إلى صدرها الذي كان يزداد دفئاً مع مرور اللحظات:

- تتريث حبيبتى أعلم أن البرد يؤلمكِ، أنتِ هكذا منذ كنت صغيرة لم تتغيري مطلقاً.

صمتُّ، وخبأتُ دمعى وانسحبتُ من حضنها دون أن أعلق على كلامها بكلمة واحدة، أصلاً لم أكن أملك أى شيء يقال، فى وضع كل ما فيه يدعو إلى الصمت وإلى المزيد من الصمت.

عادت ماماس وهى تحمل إبريق شاى تفوح منه رائحة النعناع، ورغيفَ خبز ساخنًا خرج لتوه من الفرن مع القليل من زبدة حليب المعز، وضعت كل شيء على الطاولة ونظرت إليّ بعطف دافق، كان الإحساس

المتنامى بالخطأ يكبر في كلّ ثانية وكانت عيون ماماس المتعبة من قسوة الحياة ترشق في صدري سكينة حادة، كانت تحمل في عينيها الغامضتين شيئاً من الخوف المبطن، وكأنها أحستْ أن ثمة شيئاً ما غير طبيعى، اقتربتْ منى ببطء وقالت وهى تضع يدها على رأسى وقد تركت أصابعها المرتعشة من شدة البرد تنزلق نحو الأسفل:

- تتريث هل أنتِ مريضة؟

أجبتُ مثقلة الرأس والجسد:

- أشعر ببعض التعب يا يِمّا.

رفعتْ رأسها إلى السقف ثم أغمضت عينيها على شيء وحدها كانت تعرفه، ثم قالت بنبرة منخفضة وكأنها تخشى أن يسمعنا أحد:

- للمرة الثانية عاد عمك الطاهر وأخبرني برغبته الكبيرة في تزويجك من ابنه الحسين.

قالت هذه الجملة ومشت ولمْ تترك لي فرصة الردّ، تركتنى معلقة بخيط الحيرة، تبعتها بخطوات مسرعة وقلت وأنا أمسك أصابع يدها:

- لستُ مؤهلة لهذه الحياة، لا أريد أن تموت أحلامي بين هذه الجبال.

لم تنظر إلى وجهي حين قالت:

- أنا موافقة على طلبه، لأن في الأخير سيكون مصيرك هو بيت زوجك، الدراسة لن تنفعك فى شيء، والحياة قاسية وليست بالبساطة التى تتوقعين يا تثريت، المرأة في هذه الأرض وجدتْ فقط لتتزوج وتنجب وتربي وتخدم زوجها. المرأة هنا لا تستطيع أن تعيش دون سند، وأنا لن

أعيش لك طويلاً، في يوم ما ستكونين لوحدك، كما أن الحسين شاب يعول عليه وستكون حياتك معه على أفضل حال.

أحسستُ حينها أن الدنيا صارت ضيقة ولا تحتمل، لم أجد ريقاً لابتلاع كلامها الذي كان جافاً وقاسياً، كان كلامها يشبه المطارق التى تدك القلب بقوة وبلا شفقة، كنت لحظتها في عمق رعشة الخوف، قلتُ وأنا أشد على يدها بقوة:

– هدفى هو الدراسة وليس الزواج، أحلم أن أصير مُعلمة يا ماماس، لا أريد أن أمارس حياة ليست لي.

– عمك الطاهر قرر أن يكون زواجكما خلال الصيف.

صرختُ في وجهها بصوتٍ عالٍ:

– لن أتزوج يا يِمّا.

ردت ببرودة مستفزة، جعلتنى في لحظة من اللحظات أشعر أنها تتحدث إلى شخص آخر غيري، إحساس غريب انتابنى حينها، ليست هذه هي ماماس العطوفة التي أعرف:

– انتهى الكلام. ساعديني في إشعال الحطب لتدفئة البيت.

لم أردّ اِقْتصرتُ على الصمتْ رغم أنّ الصمت كان ثقيلاً جداً على خاطري، لكن لمْ يكن لدي من حلّ آخر سواه، شعرتُ بأننى تحولتُ إلى طائر أحرقتْ أجنحته. بالنسبة لي الزواج لا يعنى الشيء الكثير سوى أنه سيحرمنى من الحياة التى أطمح إليها، وسيجعل منى امرأة تقليدية، ككل نساء أجدير، امرأة تطبخ وتكنس وتجمع الحطب وتربي الأطفال وترعى الأغنام وتَحُوكُ الزرابي، ماذا تكسب المرأة غير هذه التفاصيل التي يصعب

ذكرها، فكرة الزواج أشعر بها وكأنها تستأصل قلبى، وأن الزوج لن يكون إلا لعنة مضافة إلى هذا الفقر المترامى أينما وجهتُ بصري، أصبحتُ فجأة في زاوية سوداء يصعبُ على فيها تقبل الموضوع من أساسه، والذي آلمنى أكثر هو موافقة ماماس على طلب عمى الطاهر، رغم أنها تدرك جيداً مدى تعلقي الكبير بالدراسة.

في ذلك المساء بكيتُ بشكل طفولي، ورأيت في عينى ماماس خوفاً ملتبساً لمْ أعرف سببه وربما هى نفسها لمْ تكن تعرف مصدره بدقة، أهذه الدرجة الحياة صعبة على المرأة في هذه الأرض التى تسمى أجدير؟ في ذلك المساء نسيتُ كلّ شيء حتى موضوع غشاء البكارة نسيته تماماً من بالي، ولم أعد أرى إلا أيامى القادمة التى قطعاً لا تشبه شيئاً سوى الفراغ والملل والموت البطيء، صرتُ أعرف مسبقاً أنه سيأتي اليوم الذي أصبح فيه واحدة من هؤلاء النسوة، وستصبح أكبر همومى جمع الحطب، وأصير مثقلة حتى العظم بهمّ الأكل والشرب والتكاثر، قلبى متعب، أجنحتى مكسورة، والدنيا باتت مقرفة أكثر مما يجب.

في صباح بمجرد أن فتحتُ عينى، مرّ برأسى أني فقدتُ عذريتى، وفي جميع الأحوال لا يمكننى الزواج من إبن عمى وإلا سيقتلنى حين يكتشف أننى لمْ أعد طاهرة ونقية، وجسدي صار مدنساً ومكاناً للخطيئة التى لا تغتفر ويكون القتل هو عقابها، وأن رجلاً قبله لمس جسمى وفض بكارتي عن سبق إصرار. مرت كل هذه الأفكار بذهنى بشكل متتالٍ، ازددتُ كآبة وعاد إليّ وجه الأستاذ الذي كنت أريد أن أنساه وأنهى علاقتى به، لا أعرف من أين جاء هذا القرار الذى نزل فجأة على دماغى وعلى قلبى الذى لمْ يكن مهيأ له، اطمأننتُ على الأقل أنه ما زال بإمكاني انتشال نفسي من

فخاخ المشتهى قبل أن يتحول هذا الألم الذي أحسّه إلى جرح غائر يستحيل رتقه. حتماً سيترك المشتهى بداخلى فجوة كبيرة، وسيعيش صوته فيّ ولنْ أقدر على التخلص منه بالسهولة التى أتوقع. الأستاذ، الرجل الذي لا أدري إذا كنت قد أحببته فعلاً أم فقط كنت أتوهم، كان بي شيء من الدهشة مما يحدثُ لي، كنت أتساءل في قرارة نفسى كيف سقطتْ كل هذه المشاكل على رأسى دفقة واحدة؟ لا أدري كيف وقعت بتلك السلاسة في شباك المشتهى، وكيف احتل مكانه في قلبى بدون فوضى وكأنه كان محجوزاً له مسبقاً. في أعماقى أشتهى لو أن كل هذا لم يحدثْ، لو أننى ما زلت عذراء وصالحة للزواج. كانت تقول ماماس دوماً أن شرف البنت من شرف أهلها، وأن لا شيء أثمن من الشرف.

ربما صرتُ في حاجة ماسة إلى ترتيب أفكاري، حتى أُشعر نفسى بأني لمْ أخسر بعد معركتى ضدّ الخوف والموت وضدّ الحبّ أيضاً، وأننى لمْ أصبح حتى تلك اللحظة رميماً، كنتُ أراني مندفعة نحو العبث بشكل يخلق الرهبة والفزع، وفهمتُ أننى أسلك الطريق الخطأ، وصار لزاماً أنْ أتوقف عند ذلك الحدّ قبل أن أهدم حياتي بيدي وبقلبى الذي جرفه الحب الباكر، وأدهشه رجل لا يتكلم كثيراً وإن فتح فمه قال شعراً، رجل له أبجدية خاصة لا تشبه الأبجديات المتداولة بين عامة الناس، رجل يلتصق بكتبه الثمينة، يسكنها وتسكنه، عاشق على هيئة شاعر يعيش عصر أبي نواس والمتنبى، كنت أراني أمشى مغمضة العينين صوب شيء اسمه الغرام، لكن هذا الغرام لمْ يكن على مقاس عقلي وروحي وحتى جسدي.

اخترتُ فى ذلك الصباح الذى أطل بارداً ومرتبكاً، حمل حوائجى والرجوع إلى خنيفرة. وعندما تخطيتُ عتبة الدار كانت ماماس تقف قرب

الباب تطعم الدجاجات كعادتها كلّ صباح، نظرتْ إلي وهى تحاول جاهدة أن تخبئ ابتسامة خلاف ملامحها الهادئة، أرى وجهها بكامل تفاصيله، انتابني شعور وكأنني أكتشفه للمرة الأولى، قالت ممازحة:

- هل الزواج مخيف لهذه الدرجة؟

لأول مرة أشعر أن خياراتي كانت محدودة تماماً، ولم أعرف بماذا أرد على سؤال ماماس الذى كان ينطوى على اكثر من معنى، توقفتُ عن كل تفكير وقلتْ تلك الحجة الواهية:

- أريد أن أستغل باقى اليوم في الدراسة، لدي مجموعة من الامتحانات هذا الأسبوع، يجب أن أعود إلى خنيفرة الآن.

تقدمتْ نحوي قليلاً ثم احتضنتنى ككل مرة لحظة أودعها، قرأت في عينيها أشياء كثيرة أرعبتنى، في تلك اللحظة فكرتُ أن أعترف لها بكامل الحكاية وأخبرها بكل شيء حدث بينى وبين المشتهى وأخلص نفسى من هذا القلق الذي صار يسكن عظامى وينهش روحى، لكن في آخر لحظة وضعتُ يدى على فمى كى لا يكشف سرى الكبير، وتهرب الكلمات من لساني لحظة ضعف أمام ماماس التى من المؤكد جداً أنها أحست بحدس الأمومة التى لا تخطئ بتاتاً، أن شيئاً ما فيَّ قد تغير، وأن تتريث الصغيرة تخفى وراء صمتها ذنباً كبيراً، وأن الجسد الأنثوى الذى طالما أوصتنى بإخفائه عن عيون الرجال قد صار مستباحاً عند أحدهم، وأنه لمْ يعد مستحيلاً وصعباً وبات سهلاً وفي متناول المشتهى، وأن الصبية التى كان من المفترض أن ترفع اسم الشهيد الحسين آيت عمور عالياً قد جعلته مغمساً في العار من رأسه حتى أخمص القدم.

أنقذتنى ماماس حين سبقتنى إلى الحديث وقطعتْ الطريق أمام أي محاولة منى للبوح والاعتراف الذي لنْ يكون في صالحى حتماً وسيجرني إلى النهاية باكراً جداً:

- لنْ أفرض عليك الزواج مهما حدث.

صمتت قليلاً ثم أضافتْ بعد تنهيدة طويلة عندما رأت دموعى وشعرت بأنني على تخوم الخوف الذي يسبق أيّ كارثة:

- يا تتريث، ليس لنا إلا بعض، ولا أريد أن يأتي يوم وأندم فيه على أننى سمحتُ لك باستكمال الدراسة بعيداً عن نظري، انتبهى لنفسك ولدروسك.

يأتينى الهدوء دافئاً وأنا أستمع إلى كلام ماماس، وأنا أراها وهى تخبئ بصعوبة حزنها تحت البريق الذي يخرج من عينيها الواسعتين، يبّا لها قلب بريء يشبه وجوه الأطفال. التفت نحوي وفي عينيها بقايا دموع منكسرة وقديمة، أنا منذ أن فتحتُ عينى على الدنيا لمْ أر ماماس تبكى، فهى لم تكن تبكي حتى في أصعب الظروف التي مررنا بها بعد وفاة والدي.

رحيل أبي بتلك الطريقة الموجعة، كسر العصا التى كانت تتكئ عليها، وقصم ظهرها وأضعفَ جهدها، لكنها رغم ذلك كله كانت طول الوقت واقفة بشموخ ولمْ تستسلم لقسوة الحياة وعواصفها الثلجية، كانت تعمل باستماتة وبدون توقف، ولمْ تجعلنا أنا وأخى نشعر مطلقاً بغياب الأب الذي لا نملك عنه سوى بعض الصور الباهتة. كانت تقوم بالدورين معاً في ذات الوقت. لمْ تقل يوماً أن المهالك اليومية أتعبتها، أو أنها تشعر بالعري والعجز والحاجة إلى رجل في حياتها. كانت رافضة بشكل قاطع فكرة أن تتزوج مرة أخرى، على الرغم من أنها وجدتْ نفسها أرملة في سنّ باكرة

جداً. كانت تقول لي دائماً هذه الجملة المثقلة بالحب والوفاء والإخلاص ونكران الذات، "عندما مات الشهيد ترك لي أمانة ويجب أن أحافظ عليها وهذه الأمانة هي أنتِ وأخوك".

أنا أدين لها بكل ما وصلتُ إليه، وبكل الأشياء الجميلة التى حصلتْ لي، ماماس كانت عندما تتعب من شيء ما لا تنسحب بل تواصل الركض خلفه رغم مرارة الركض، وعندما كانت تنغلق عليها السبل كانت تتذكر أنَّ الحياة كلما ضاقت أكثر كان الفرجُ قريباً. هى هكذا كانت مؤمنة بأن الله لن يتركنا في مواجهة المآسى التى يصعب علينا تحملها وحدنا وسيكون معنا. اليوم كلما فقدتُ شيئاً مهما كان عظيماً، عرفتُ أن الله سيعوضنى بآخر أعظم منه، هذا ما علمتني إياه ماماس.

هى لمْ تكن تبكيها الخسارات والهزائم الصغيرة التى نصادفها بشكل يومى واعتيادي، الشيء الوحيد الذي كان يهزمها ويبكيها هى ذكرى أبي الذى قتل برصاص الوطن وأحرقت جثته حتى صارت حفنة من الرماد الأسود. الأشواق القديمة التى كانت تستيقظ فيها دفعة واحدة، كانت تسلط عليها الأحزان وتآكل ما تبقى من القلب والعمر، وتجعل من الألم شيئاً مستساغاً، حينها فقط ندرك نحن جميعاً أن القدر قد مارس معنا أسوأ أدواره، ثم فجأة ينسحبُ كل شيء وتظل ذكرى أبي معلقة على جدار الذاكرة، أبي الذي مضى ولمْ يلتفت وراءه، سقط في أيام الموت الأولى ولمْ يترك لنا أي شيء سوى ذلك القدر الكبير من الحسرة والحقد والغضب، لماذا قُتِلَ أبي؟ ومن قتله؟

أحتاج ربما إلى بعض الأجوبة لأربي بداخلى القليل من الغفران، أو لعلني أحتاج بشكل أدق إلى الكثير من العزاءات فقط، الأسئلة المتشابكة

التى تقبع بقرع رأسى تنغص علىّ الحياة. لقد صار كل ما يحيط بي مرتبطاً بذكرى أبي. كان يمكن له حتماً أن يأخذ مزيداً من الحذر وهو يواجه الموت المتربص به بين جبال قبيلة مولاي بوعزة، كان من الممكن أن لا يحدث هذا كله، تقول ماماس أنه عندما هدّدوه بالتصفية إذا استمر في وقوفه ضد الدولة، إنه ضحك طويلاً ولم يتراجع خطوة للخلف عكس باقى رجال القرية، كان يمكن أن لا يموت لو أنه لمْ يضحك بتلك الطريقة يومها. الضحك الذي دفعت ماماس ثمنه من عمرها وشبابها. ودفعنا أنا وأخى ثمنه من إحساسنا القاهر باليتم ومن نظرة الناس إلينا، تلك النظرة المفعمة بالشفقة التي تقهر أكثر من اليتم بحد ذاته.

ربما كان هذا هو قدر ماماس وقدرى لأن حظّاً بئيساً شاء أن أولد على هذه الأرض التى كل يوم تتوحش أكثر وأعيش بين هذه الجدران الصماء والهرمة، ربما طلبى الوحيد الآن هو أن أعرف لماذا قتل أبي واختفتْ جثته، وأن أرى وجه قاتله وأسأله لماذا. البعض يقول إنه لمْ يُقْتَلْ في ذلك اليوم بل اعتقل وتمَّ نقله إلى العاصمة للتحقيق مَعَهُ، وآخرون على دراية أكبر بتلك الفترة، يقولون إنه قتل برصاص الأمن وأحرق جسده في نفس المكان الذي لفظ فيه أنفاسه الأخيرة، الذين عرفوه يقولون إنه وهب عمره للأرض التى كانت جزءًا من دمه وتنفسه، الأرض التى أعطاها كل شيء ولم تعطه إلا القليل جداً. أي شجاعة كان يملك أبي يوم قرر عبثاً أن يواجه الموت. أنا على يقين أنه كان رجُلاً استثنائياً. اختار القيام بأصعب شيء دون تردّد، أنا على يقين أنه كان يملك قناعة كبيرة بوطن عادل، ولم يفعل ما فعله مجبراً بل عن حب وعن رغبة وبعنفوان كبير لا يملكه إلا القلة القليلة من الرجال.

كنت دوماً أطرح هذه الأسئلة الصعبة على ماماس، حينما كان يستعصى على الفهم وتنغلق في وجهى مسالك الحكاية، وكانت هى تقول في محاولة منها لإنهاء الحديث والتصدي لذلك السيل الثقيل من الأسئلة التى لمْ تكن تفعل شيئاً سوى تعميق هوة الجرح المتمادي: "غبى من يفكر في مواجهة دولة بكل جيوشها ورصاصها وكلابها وزنازينها المظلمة، في هذه البلاد إما أن تكون من القطيع أو تذبح مثل أي ديك أو خروف، هذه الدولة يا تثريت لها كلابها التي تعض وتفترس بلا أدنى تردّد".

كنت أعرف أنّ هذه الأسئلة ستظل تطاردني ولنْ أجد لها جواباً شافياً، لا أدري. المؤكد أن الجواب ليس هنا في هذه القرية البائسة، بل في سجلات النظام وفى تاريخه الدموى، إننى اليوم أبكى أباً صار مجرد اسم أحمله معى فى الذاكرة التي تصرخ من حين لآخر ألماً وحسرة.

كنتُ كلما رأيتُ ماماس تغنى تلك المواويل الحزينة عن فراق أبي، كنتُ أقفُ أمامها وأستمع إلى صوتها الذى قهرته الفواجع ولا سبيل له فى الدنيا غير الغناء الذي يشبه الصياح، كنتُ أشعر بالعجز والضعف ولكن لا شيء أملكه لرتق الجروح التى كانت تتسع كل يوم أكثر في صدرها، كنتُ أقف أمامها دون أن أسأل عن سبب البكاء والغناء ولا عن ذلك الرثاء الذي لا يبرح صوتها ولا ملامحها حتى صار محفوراً على خطوط وجهها النحيف. ما أصعب على المرء أن يفقد أحبابه فجأة ودفعة واحدة.

ماماس كانت تعيش وسط أناشيدها وتراتيلها المهمومة، وكانت تهرب من أحزانها صوب المغزل والمنسج وخيوط الصوف الملونة، لتنتج زرابي تعبر فيها عن حزنها وفرحها وأحلامها بأشكال هندسية مضبوطة ورموز وحدها تعرف معناها وسرّها والغاية منها، تقول إنَّ هذه الزرابي هي جزء

من هوايتنا وثقافتنا وعاداتنا الأمازيغية، ولا يمكن أن نفرط فيها مهما تبدلتْ ظروف الحياة، ماماس وجدتْ نفسها نساجة مثل والدتها وجدتها ونساء قريتنا جميعاً، حيث الغزل والنسج جزء من يوميات كل امرأة كتب لها القدر أن تولد هنا وتكبر هنا وتعيش هنا، وحيث إن المنسج أداة أساسية في كلّ بيت ولا يمكن بأي شكل من الأشكال الاستغناء عنه.

لمْ تكن ماماس تنسج الزرابي بهدف كسب قوتنا اليومى، كنت أحس بأنّهَا ترسُمُ لوحات فنية ساحرة تضع فيها بعضاً من روحها وإحساسها، كانت الخيوط الصوفية الملونة تتحول في يدها إلى ريشة مطواعة تنقل إلى المنسج لحظات شغفها بما تصنع أناملها وتخلقُ مخيلتها. لدرجة أنها كانت تقضى أسابيع وهى تنسج واحدة منها دون كلل أو ملل، كانت تغرق فى التفاصيل إلى حدّ تنسلخ فيه عن العالم من حولها، فلا تعود إلى الواقع إلا بعد أن تضع آخر خيط في لوحتها الفنية.

الزرابي التى تخرج من تحت أصابع أمى لا تخطئها العين، لها بريق خاص، تنسجها بصبر وإحساس مرهف، ومهارة لا تختص بها إلا هى. الزرابي بالنسبة لها حالة عشق ومزاج ونشوة. ما زلت أتذكر حينما كنت في سنوات عمرى الأولى أساعدها بجز صوف الغنم خلال شهر ماى، وغسله وتنظيفه في مياه البحيرة التى كانت تبعد عن بيتنا مسافة عشرين خطوة بالتمام، وصوتنا يصدح بالأهازيج، ثم تنشيفه وتمشيطه وصباغته بألوان كنا نستخلصها من الأعشاب الطبيعية مثل الحناء وقشور الرمان والفوة وغيرها، ثم غزل الخيوط الصوفية التى تكون في الغالب ذات لون أحمر أو أصفر أو أزرق غامق، لتصير شيئا فشيئاً لوحة كاملة التوهج.

هذه الحرفة التى ورثناها عن الجدات، كانت تمكننا من اجتياز مشاكل الحياة المادية وفكّ العزلة عن أرضنا، وكسب مصدر رزق يحفظ لنا كرامتنا ولو قليلاً.

في قريتنا تعتبر أنامل النساء هي السبيل للحياة وللبقاء وللمقاومة..

تباغتنى الذاكرة في تلك اللحظات التى من المفروض على أن أكون فيها بكمال شعوري ووعيي ...

***

أمطار خنيفرة الباردة، ورياحها التى تأتي من كل الجهات، ووجوه الأستاذ مرة أخرى، تسحبنى البرودة شيئاً فشيئاً إلى حيث لا أرغب، أغمض عينى على الثلوج والبروق محاولة أن لا أتعثر بملامح المشتهى الذي كلما ظننتُ سهواً أننى تجاوزته ازدَادَ هو توغُلاً فيَّ أكثر، منذ بداية الحصة الدراسية وهو ينظر إليّ بنظرة مفعمة بالأشواق الغامضة، يؤجل كل شيء ويمنحنى بعض البرد الإضافي، وينغص على كل المحاولات الممكنة في نسيانه ونسيان كل ما حدث بيننا، ما الذي يوقظه في؟ نظرة واحدة منه كانت كافية بأن تدخلني مسالك مدهشة لمْ أتعود عليها.

هذه الأمطار العنيفة التى تنقر زجاج النافذة، تجعلنى أشعر أحياناً باليتم، وأنّ قلبى يريد أنْ يخرج من صدري ويركض صوب صدره ويختبئ في أقصى نقطة ممكنة بداخله. شيء ما كان يخترقنى كلما رفع بصره نحوي، وكلما اقترب منى قليلاً شعرتُ بأنه على الحافة الأكثر قرباً، أغمض عينى وأسمع صوت خطواته فقط ولا أفكر في أي شيء آخر، أنظر إليه بنظرة مغمسة بالحذر والخوف. يبتسم، فأنسى الأخطار المحدقة بي ولا أبادله إلا الصمت والمزيد من الحذر والخوف.

الأمطار مرة أخرى، والانخطافات والانتظارات، وعيون المشتهى تفتح كل الشبابيك المغلقة، ولا تمنحنى فرصة التأكد من أننى قادرة على الابتعاد عنه ولو قليلاً، كلما رمقنى من مكانه زاد ارتعاشى وبدأ جسدي يتمرد على ويجري إليه، كلما أقنعتُ نفسى بأن نار الفقدان لن تحرقنى، احترقتُ حدّ التفحم، أتساءل كيف لكل هذه البرودة أن لا تطفئ النار المشتعلة بداخلى؟ وكيف لنظرة واحدة منه أن ترتشق في القلب والعين في ذات اللحظة، نظرة واحدة مليئة بالحروف والكلمات والأشعار والأوراق والوعود والأشواق المنهكة، عيونه كانت هي الغوايات الأولى.

الأمطار توقفت أخيراً وتسلل بعدها شعاع رقيق من الشمس ثم انعكس فى الجدار المقابل، هكذا تنسحب الأمطار بصمت عكس ما جاءت عنيفة وباردة وغاضبة، وكتب لي الأستاذ في آخر الحصة قصيدة كالعادة دون أن يتفوه بكلمة واحدة، فهو لم يكن في حاجة إلى الكلام ليثبت لي أننى أضعف من أن أقاوم سطوة حضوره ونظراته. ثم انسحب مثلما جاء بصمت مطبق، ولم يترك فرصة أن أقول له: يا حبيبى قررتُ يوم أمس أن أتخلى عنك، لكن أتوقع أننى سأفشل في ذلك. وها أنا أعود أدراجى إليك محملة بالأسئلة ومثقلة بالخوف، لو تدري فقط كم صرتُ أخاف منك، أيها الذئب الجريح الذي يختبئ وراء اللغة، لماذا ترابط في مكتبك وتطل على من مكانك وتقول صباح الخير، لماذا تستدرجنا بهذا الإصرار نحو قدر مبهم وتتمادى في غيك ومراوغتك وأنت تعرف أن قصتنا يمكن أن تصير مؤذية في أي لحظة، وأنّ الحبّ سيقلب كلّ المعادلات وينتهى بكارثة لا أنا ولا أنت على استعداد لتحمّلها، أما آن لك أن تتوقف عن الجنون؟ أما آن لك أن تفكر قليلاً أن الحب ليس قصيدة، وأن الحياة ليست لعبة. وأن جسدي ليس ملكك، وأن المطر لا يعني لي شيئاً سوى أنه يذكرني باليتم. ألم يحن

الوقت بعد لتدرك أنك تقترف خطأ فادحاً في حق نفسك وفي حق نفسي وفي حق زوجتك التي لا ذنب لها في ما يحدث خلف ظهرها، لا تكن سجين نزواتك، ولن أكون هرتك الصغيرة التي تلوح لك كلما مررت بقربها سهواً، ارجع من حيث جئت. لا تتوقف وواصل انحدارك بصمتْ لأنك تعرف أنني لن أستطيع السير معك إلى منتهى الرحلة، توقف قليلاً دعني أخبرك بشيء أخير، هو مهم بالنسبة لي وقد لا يكون مهماً بالنسبة لك، لكن من الواجب أن تعرف أنني أحببتك.

ما أن خلوتُ بنفسي ساعة القيلولة، حتى فتحتُ دفتر النصوص الذي كتبت عليه القصيدة، من يفك الآن حروف هذه الأبيات، من يخبرني بمعناها وبما يقصد المشتهي من خلالها:

عذِّب بما شئت غيرَ البعدِ عنكَ ... أوفى محبٍّ بما يرضيكَ مبتهِج
وخذْ بقيَّةَ ما أبقيتَ من رمقٍ ... لا خيرَ في الحبِّ إن أبقى على المُهج
لله أجفانُ عينٍ، فيكَ، ساهرةً ... شوقًا إليكَ، وقلبٌ بالغرام، شج
أصبحت فيكَ كما أمسيتُ و لم ... أقل جَزَعًا: يا أزمةُ انفَرجي
ما بينَ معتركِ الأحداق والمهج ... أنا القتيلُ بلا إثم ولا حرَج

إلى أين يسحبني هذا المشتهى العنيد؟ إلى أين تجرني هذه اللغة المليئة بالدسائس والفخاخ؟ البارحة عندما رأيتُ دموع ماماس اتخذت قراراً حاسماً بيني وبين نفسي، ولا أريد أن أتراجع عنه مهما كان قاسياً وجافاً، لستُ أدري كيف يمكنني أن أهرب منه دون أن أجرح قلبي أكثر، علاقتي به صعبة بل مستحيلة ومسدودة الأفق، وكل الطرق التي تؤدي إليه مليئة بالأشواك وشظايا الزجاج المكسور، ولا بدّ أنْ أغير وجهتي كي لا أخسر أمي وأسبّب لها ألماً عميقاً هي ليست على استعداد لتقبله، وكي لا أخسر

ذاتي باكراً، لستُ في العمر المناسب لمثل هذه الهزات العنيفة التى يأتي بها الحبّ.

جئتُ إلى هنا للدراسة وليس لِلْغَرام، صحيح أننى لمْ أكن أفكر بهذه الطريقة العقلانية قبل يوم فقط، وصحيح أنّ هذه الفكرة تولدتْ بداخلى نتيجة الكلام الذي قالته لي ماماس، يبدو أن الإنسان يحتاج من حين لآخر لمن يوقظه من الحلم ويخبره كم أنّ الحياة صعبة ولا تسمح بمزيد من التهور، من فرط يقينى بأني قادرة على تخطى هذه العلاقة التى صرتُ أسميها علاقة عابرة، نسيتُ أن أعترف لنفسى أولاً أنّ الأمر ليس بالسهولة التى أتخيلها، وأن الأشياء الصغيرة التى نتوقعها الأقل حضوراً فينا ويمكن تجاوزها ببساطة، تكون في الحقيقة هي الأشياء الأكثر تغلغلاً فينا.

أغلقت الدفتر سريعاً وأعدته إلى المحفظة، رفعتُ رأسى صوب النافذة، كان شعاع الشمس قد انكسر وعادت الغيوم الثقيلة إلى السماء حتى حالت زرقتها نحو السواد الضارب باتجاه العمق. رميتُ ببصرى بعيدا نحو الشارع المقابل لدار الطالبات وأنا أسند ذراعى إلى خشب النافذة، وأتذكر كلمات ماماس التي كانت حادة وقاسية وصادقة حدّ الإرباك.

صفنتُ قليلاً أفكر في ذلك الكلام الذي قالته لي يوماً ماماس وهى تحدثنى عن قسوة الفراق الذي كتب عليها مع أبي، أحياناً لكى نستطيع أن ننسى ولو مؤقتاً شخصاً أحببناه ولكنه رحل دون سابق إنذار، علينا أن نقنع أنفسنا بأن الدنيا قصيرة ويجب أن تعاش بفرح، ثم نمضى نحو ما تبقى من عمرنا وإلا ستقتلنا الحسرة، وتأكلنا الأسئلة التى تَجُرُّنَا صَوْبَ أسئلة أخرى أكبر وأكثر قسوة ولا جَدْوَى من طرْحِهَا أساساً.

خارت ركبتاي وأنا ألمح سيارة الأستاذ تركن في الشارع على بعد أمتار قليلة منى، ثم نزل منها بسرعة حين رآني أقف خلف النافذة، أشار إلى بيده بعد أن أشعل سيجارة. ألمت بي لحظتها موجة من الارتباك، خفتُ أن يكتشف أمرنا وتصير فضيحة كبيرة لنا معاً، كانت زميلاتي في السكن يلغطن مع بعضهن في أقصى الغرفة، وكانت الأمطار قد بدأت تتساقط، أشرتُ إليه كى يرحل، لكنه رفض بإشارة من رأسه. أدركت حينها أنه لن يغادر المكان قبل أنزل إليه.

ارتديتُ المعطف الصوفي الذي نسجته لي ماماس بأصابعها، وتحججتُ برغبة في شراء قلم حبر أزرق من البقالة، كى أفلتَ من الأسئلة التى من المتوقع أن تطرحها زميلاتي، نزلتُ الدرج، وقلبى كان يسبق خطواتي المتعثرة، كدتُ أسقط عند آخر درجة لولا أننى تمسكتُ بالحائط في تلك اللحظة، وصلتُ عنده وقد غابتْ الدماء عن وجهى، أصادف عينيه المرتشقتين فيَّ فأخاف، كان ما يزال واقفاً مكانه رغم أنّ المطر كان قد بدأ يزداد قساوة، إلا أنه لم يتحرك من مكانه خطوة واحدة، كأنه غير آبه بقطرات المطر الثقيلة التى كانت ترتطم بوجهه، تأملنى وقد ارتسمت على ملامحه ظل ابتسامة مكسورة، ثم تقدم نحو السيارة وفتح بابها الخلفى كى أركبْ، قلتُ له حينها بنبرة مخنوقة فيها مزيج من الخوف والدهشة:

– سأتأخر عن ...

قاطعنى عنوةً بعد أن سحق سيجارته التى لم يكن قد أنهاها بعد تحت حذائه الجلدي الأسود:

– لن نتأخر أعدك، أريد أن أكلمك في موضوع مهم جداً.

– حسناً

لم أسأل كم من الوقت سيحتاج ليكلمنى في الموضوع الذي وصفه بأنه مهم جداً، لأننى كنتُ خائفة أن تلمحنى إحدى زميلاتي من النافذة التى تركتها مفتوحة لفرط الارتباك الذي اعتراني في تلك الثانية، كان همى الأكبر هو أنْ أغادر ذلك المكان بأقصى سرعة ممكنة، وأتوقع أنه كان يشاركني نفس الرغبة ونفس الهمّ أيضاً.

جلستُ في المقعد الخلفى، انكمشتُ على نفسى، وضممتُ ركبتَيَّ إلى صدرى، وفى الطريق إلى البيت سأل أسئلة غريبة، دخل منها إلى تفاصيلى الحياتية، وتسرب إلى ذاكرتي البعيدة بسلاسة ونعومة، فتحت أسئلته أمامنا الطريق للتوغل أكثر في ما يمكن أن يجمعنا أنا وهو، بالتأكيد هناك أشياء كثيرة مشتتة ومبهمة تكتم أنفاسى وتجعلنى أصارع التعب والخوف والدهشة، تبادر إلى ذهنى لحظتها سؤال كنت أتمنى لو أننى أملك القليل من الجرأة لأطرحه عليه، ما الحب؟ لكنّ ثمة شيئًا يشبه الرهبة كان يسكن عظامي من حيث لا أدري.

لهذا لم يعد يهمنى أن أقول أي شيء للأستاذ، اكتفيتُ بالصمت بينما كان هو يركن السيارة على مسافة قريبة من البيت، لم ينتبه إلى أن جسدى كان يرتعد من شدة الخوف.

بعد أن دخلنا إلى البيت نظر إليّ ثم هبَّ متقدماً نحوى بخطوات متسارعة وهو يقول متردداً: لقد أخبرنى الطبيب بضرورة الإقلاع عن شرب الكحوليات واتّباع حمية صارمة تجنباً لأية مضاعفات قد تنتج عن التهاب البنكرياس، وما كاد ينهى كلامه حتى فتح قنينة من الخمر وسكب لنفسه كأساً، ثم أضاف ضاحكاً: لكن الطبيب لا يعرف أن شاعراً هشاً مثلي لا يستطيع أن يتحمل الحياة إلا وهو في حالة سكر، كانت علامات

الانهزام تغزو نظراته، وكأنه كان يعاني من الأفكار والذكريات التى تتشابك حول رأسه دون انقطاع، وكأنه كان داخل عالم وعر كل شيء فيه صار خشناً وبدائياً، لمْ يكن مرتاحاً كما يفترض به أن يكون، ثمة شيء ما كان يثقل صدره ويجعله في دوامة لا متناهية من الارتباك، ثمة حزن عميق كان يلسع أعماقه دون توقف.

كنت أشعر بأننى ما زلتُ غير قادرة على فهم الكثير من الأشياء التى تبدو غامضة ومبهمة، أشياء لمْ أجد لها تفسيراً مقنعاً حتى تلك اللحظة، كانت تنفذ إلى أعماقى، تبعثر أسئلتى واحدًا تلو الآخر، تؤجج المخاوف لدي وتفترسنى بضراوة، عندما نظرتُ إلى ملامح وجهه، وجدتُ نفسى وكأننى أمام رجل لا أعرفه بتاتاً، كانت تبدو عليه علامات الانطفاء وهو يتقلب في وسط رماد الحرائق التى أشم رائحتها ولا أعرف سببها أو تاريخها ومن أشعلها في صدره فجأة، كانت تحاصرني مشاعر مختلطة تحتدم في داخلى، وكانت تحاصره هواجس تجثم على ذاكرته، وتعبثُ بتلك اللحظات المجنونة التى كانت تجمعنا خلسة في دهاليز العَتَمَةِ، والتى هى في المجمل مزيج من المتعة الهشّة والخوف، كان خائفاً من شيء لا أعرفه وربما لا يعرفه هو أيضاً، وكنت خائفة منه ومن عيون ماماس الغارقة في الحزن التى كانت تراقبنى من بعيد جداً، في تلك الأمسيات الباردة والبعيدة كانت أحلامى صغيرة وبسيطة، وكانت روحى حرة تحلق إلى أبعد نقطة في قمم الجبال التى تحاصر أجدير من كل الجوانب والجهات، واليوم أنا هنا في غرفة رجل لا أعرف عنه إلا ما يعرفه الجميع، أنا اليوم كمن يسير مشتت الذهن في طرق متشعبة ولا يدرك إلى أين تأخذه هذه المسالك الوعرة.

يرتطم بصري بجسده العاري، أرقبه بشرود يتطاول حتى يصل تخوم أسراره الصغيرة والكبيرة، كان انسياب الوقت يمر بطيئاً، ومثل شعاع ضوء خافت كان وجه الأستاذ ينبثق لي من تحت الظلام، رفّة جفنيه السريعة جعلتنى أحس ببعض الارتباك الذي شعرتُ به لأول مرة بحضرته، ليتنى لمْ أنظر إلى لمعة عَيْنَيْهِ يومها، ولمْ أستمع إلى وشْوشَاتِهِ، وأقع في حبائل غواياته، ليتنى توقفتُ وأحجمتُ عن الدخول في حياته الغامضة. لا أدري حتى الآن لماذا اختارني من بين الكل، ولا أدري لماذا اخترته أنا أيضاً، هذه الأسئلة دوماً ما كانت تتردد على مسامعى كلما اصطدم وجهى بوجهه، لكننى لمْ أكن أملك الجرأة الكافية لطرح هذه الأسئلة عليه ولا حتى على نفسى، في حضوره أكون مأسورة بأوهامى، ومأسورة بحركاته الدقيقة والموجزة، حركات يديه وهى تحمل الكأس بنخوة وهى تمسك السيجارة بخفة، حركات شفتيه وهى تنطق اِسمى ببطء متعمد، أكون مأسورة بمشيته وبكل تفاصيله الصغيرة، في البداية كنت أتهرب من لقاءاتنا السرية تحت حجج واهية، كنت أحاول أن لا يصير انبهاري به رغبة عارمة لا تحتمل التأجيل، قال وهو يمسك أصابع يدي بلهجة ونبرة صوت وكلمات لمْ أعهدها منه:

– سأخبرك بسرّ صغير عن حياتي.

كان يتكلم وهو مُمْسِك بيدي ويضعها على صدره، لم أفهم ما يرمى إليه، سحبتُ يدي بعنف وأصابتنى كلماته بلوثة خوف فجائى، عاد مرة أخرى وأمسك يدي بقوة ووضعها على صدره ثم أضاف:

– هنا يوجد ورم خبيث، يضعفنى كلّ يوم أكثر، ويسرق منى الحياة قطرة قطرة، إنني أعيش آخر أيام حياتي يا تثريت.

كلماته، كانت طعنة نجلاء سددت في القلب مباشرة، كل المخاوف المدفونة في صدري بدأتْ تنهض من مرقدها، كانت كلمات سامة ومخيفة حتى صار محيط إدراكى مشوشاً تماماً، وأصبح مجال الرؤية أمامى بلون داكن يشبه رماد الحرائق، لكنى لبثتُ صامتةً بينما استمر هو في الحديث قائلاً:

– أريد أن أعيش معك ما تبقى من العمر، أريد أن أكتب عنك قصيدتي الأخيرة.

كان يخاطبنى بطريقة غريبة، لمْ أستوعبها كما يفترض، نظر إلي بعينين لا تطرفان، ربما كان ينتظر منى أن أنطق ولو بكلمة واحدة، حرصتُ على الهدوء والسكون، غصتُ في صمت ثقيل جداً ومستفز، ومن جوف الظلمة سمعتُ صوته يأتيني واهناً هذه المرة:

– لمْ أشبع بعد من الحياة، لمْ أسافر حيث أريد، لم أنشر ديواني الشعرى الذي قضيتُ سنوات طويلة في كتابته، لا يمكن أن تكون الدنيا قاسية عليّ بهذه الطريقة.

صمت للحظة قصيرة، ثم واصل بنبرة حادة وكأنه يخاطب نفسه:

– لا أدر ي إن كنت أستحق كل هذا الألم، أشعر أحياناً أن الله يعاقبنى عن ذنب اقترفته في حق والدتي، يوم رميتها في دار المسنين وتخليتُ عنها كما نتخلى عن فردة حذاء مُمزق، أحقد على نفسي لأنني ...

العبارة الأخيرة كانت صادمة بالنسبة لي، أقصى ما أتمناه ألا أسمع منه المزيد من الأسرار المفزعة، كانت الأسئلة الحادة كنصل سكين مسنونة تأكلنى أكلاً، قاطعته بحركة من يدي بعد أن سحبتها من تحت صدره، وقلتُ بنبرة مخنوقة كتلك التي تسبق البكاء بثوانٍ قليلة:

– لمْ أفهم أي كلمة مما قلت لي.

بعد أن قلتُ هذه الجملة كان جسدى يقشعر وتصيبنى رجفة، أما هو فبدا غير مهتم تماماً بما تفوهتُ به. تفحصنى بنظرة عميقة كان يحاول من خلالها قول العديد من الأشياء، لكنه في الوقت نفسه كان يصارع دواخله التى تدفعه إلى البوح الباكر مرغماً، غاب ذلك الألق الخفى الذي كان يصدر منه كلما لمس جسدي بأطراف أصابعه، غاب دفء صدره فجأة وصار جافاً وبارداً كحجر. ابتلع لسانه وأشعل سيجارة، تحول فى غمضة عين من رجل مفعم بالحياة والنشوة إلى كتلة بشرية هشّة شفافة وشاحبة تئن تحت ثقل الماضي الموجع الذي لَمْ يَحْكِ منه إلا القليل.

كانت تقتلنى نظرته المهزومة، التى استوطنت صدرى كجرح لا يندمل، كان بالإمكان أن لا يقول أي شيء مما قاله دفعة واحدة، وأن يكون ذلك اللقاء عادياً لولا تلك العبارات المخيفة التى جعلتْ الأمور تسير رأساً على عقبْ. نعم، كانت كلماته مفاجئة لى، وشكلتْ بداخلى كومة من أسئلة تبحث عن إجابات، أسئلة تحرقنى كنار مشتعلة، نار أشبه بحريق كبير.

ماذا يقصد "بورم خبيث"؟ ولماذا قال إنه يعيش آخر أيام حياته؟ وما قصته مع أمّه؟ هذه التساؤلات بقيتْ مرسومة في ذهنى وأنا أراه قادماً يمشى. مرّ بجانبى وتجاهلنى، لمْ ينظر لى قط وكأنه لا يراني وكأننى لا شيء، كان يمشي ببطء وهُو عارٍ تماماً وينادي:

– أمي .. يا أمي أنا آسف على كل شيء.

سبقنى بخطوات قصيرة ويداه معقودتان خلف ظهره بعد أن سحق عقب سيجارته في المنفضة، تبعته دون أن أرتدي ملابسي، جلس على كرسي

خشبى بجانب خزانة الكتب، ثم أسبل عينيه وقد استغرقه تفكير عميق. وقفتُ أمامه مباشرة، وكانت بيننا مسافة خطوة لا أكثر، كنتُ على مرمى ذراعيه لكنه لمْ يحضنى، انتابنى شعور بالخوف وشعرتُ به يتدحرج نحو هوة عميقة وبعيدة الغور. لا أدري كم مضى من الوقت وأنا واقفة أمامه كتمثال من الشمع، لمحتُ وجهه الباكى، رأيتُ دموعه المنهمرة، وعلى غير العادة رأيتُ وجهه الحزين. لمْ يسبق لي أن رأيتُ يوماً رجلاً يبكى بهذه الطريقة القاسية، كانت تلك أول مرة أشاهد فيها دموع الرجال وأعرف أن الرجال يبكون مثل الأطفال، تعلمتُ في أجدير أن الرجل لا يبكى حتى لو كسرتْ الحياة ظهره.

ماذا يحدث؟ قلتُ له ثم أضفت:

– أرجوك لا تعذبني، تكلم. سكوتك يزيد من عذابي.

بدأ بكاء الأستاذ يهدأ قليلاً، كان جالساً أمامى واضعاً يده على خده، ينظر إلي ولا ينظر في الوقت نفسه، تشاغلتُ بالبحث عن كرسى لأجلس عليه حتى جاءني صوته أخيراً، كان واهناً ضعيفاً تشوبه مرارة لا تخفى، نبرة صوته اصطدمتْ بي وتناثرتْ إلى أشلاء متفرقة :

– السرطان ينخر جسدي ببطء، أخبرني الطبيب أننى في مرحلة متقدمة من المرض ويجب على أن أنتقل إلى العلاج الكيميائى فى أقرب وقتْ. ومن المحتمل أن أنتقل إلى مدينة الرباط لتلقي العلاج خلال الأشهر القادمة.

وكأننى لمْ أسمعه، كنت فقط أرى حركات شفتيه تلقى بكلام سرعان ما يذبل ويجفُّ. ويسقط في الفراغ المحصور بينى وبينه، تيبستْ أطرافي وشعرتُ بلسعة برد كاوية تجتاح جسدي، تعطلتْ حواسى كلها ولمْ أعد أميز بين كلامه وما يدور في خاطري من كلمات.

صمت للحظة ثم واصل بنفس النبرة:

– لستُ على استعداد بعد لخوض هذه الرحلة القاسية التى تنتظرني، كما أننى لا أريد أن أموت بين الأجهزة الطبية، وعلب الأدوية. لا لست خائفاً من الموت بحد ذاته، أنا خائف من أن أموت قبل أن أحقق بعض أحلامى البسيطة، المدة التى تفصلنى عن الموت هى المخيفة وليس لحظة الموت بعينها، في كل مرة أقول إن الحياة ستضحك لي أخيراً، أجدها ممتلئة بالقيح والصديد والهواء الحار، عقلى يمور بأفكار شريرة تروح وتجيء من حين لآخر، وقلبى أصبح مثل الرماد الذي يأتي في أعقاب حريق هائل. وكأن الدنيا ضاقت بوجودي، وصار لزاماً عليّ أن أرحل.

وفيمَا هُو يتكلم دون انقطاع، كنت أنا واقعة فى تلك المنطقة الرمادية التى يجتمع فيها الخوف والترقب والذهول والصدمة، كلماتي تتعثر. آهات من الحزن لها أشواك طويلة انغرستْ في اللحم والعظم والعصب، وبعد ذلك الصمت الطويل الذى ألجأ إليه عادة فى لحظات الشدائد والانكسارات وخيبات الأمل، قررت أن أقول له دون أن أنظر إليه تماماً:

– إن رحلتَ، لمن ستتركني.

ثم رفعتُ بصري صوبه، كان يبتسم، كان مثل الذي سمع كلاماً كان ينتظره، لكنه لمْ يكلف نفسه عناء النظر إلى أو يشد من أزرى ولو بكلمة واحدة، كان يبتسم وفقط. وكنت أشتهى أن يجرني إليه بكل ما يملك من قوة، ويختصر المساحات والمسافات التى تحول بينى وبينه، ويضمنى إلى صدره كما لو أننى حفنة من ضوء الشمس، كنت أتمنى لو أنه مسك أصابع يدي وقبلها واحداً واحداً، لكنه لم يفعل أيَّ شيء، كان يبتسم وفقط.

هدوء مريب يلف المكان. يشيع نوعاً من التوتر، يجعل من الوقوف على القدمين أمراً بالغ الصعوبة، تقدم نحوي الأستاذ خطوة، أنظر في عينيه مباشرة، ذلك العطر الخفيف الذي يفوح من رقبته والذي يبعثر سكينة النفس جعلني أتراجع خطوة إلى الوراء، لحق بي ثم احتضنني.

وفجأة همس في أذني بنبرة مفعمة بالحنان والرقة:

- لأجلك أنا هنا، ولأجلك سأبقى أقاتل لآخر نفس، ولأجلك يا تثريت سأواصل الحياة رغماً عن المرض الذى ينهش جسدى كلّ لحظة أكثر.

وعلى النقيض تماماً كنت أحاول الهرب من أحزانه ومرضه وقصصه وماضيه كما لو كان لا يخصنى بتاتاً، لمْ أكن أتصور أنَّ الذي يفصل بينى وبينه هو فقط غشاء واهن لنْ يصمد كثيراً أمام حرارة جسده وحلاوة كلماته، مأساة أن يتحول ذلك الخوف الذى كنت أحسّه قبل أن أجتاز عتبة هذا البيت إلى رغبة كبيرة في الغوص أكثر وأكثر في خبايا هذا الرجل وفي ذكرياته البعيدة.

وأنا بين أحضانه، ارتخت عضلات وجهى شيئاً فشيئاً، ثم عدت إلى طفولتى، ونسيت أن أكون حذرة في تعاملى معه، نسيت وصايا ماماس، ونسيت خوفى دفعة واحدة، وتركتُ كل شيء خلف ظهرى وركبتُ جنوني دون أن أسأل كيف ولماذا.

علمتُ منه أنه ينوي الطلاق من زوجته، لأنّ الأمور بينهما وصلت إلى باب مسدود، هو لمْ يكن يريد أن يخبرني بتفاصيل أكثر، لكننى كنت ملحة على معرفة أدق الجزئيات الخاصّة بهذه القصة. وقبل أن يحكى لي كل شيء، ارتشف ما بقي في كأسه دفعة واحدة وأخرج علبة السجائر من جيب

معطفه الذي كان مُعَلَّقاً بمسمار على الحائط، استل منها بأصابع يده اليسرى سيجارة ولم يشعلها ثم قال:

- زوجتى كانت هى السبب الأول في مشكلتى مع أمى، أرغمتنى على طردها ووضعها في دار للعجزة، كانت دوماً تخلق مشاكل معها لأسباب تافهة، حتى إنّها ذات مرة حاولت ضربها أمامى، لكننى كنت نذلاً وحقيراً ولمْ أدافع عن أمى كما يفترض بل على العكس تماماً، وقفت في صفّ زوجتى، ورميت أمى بدم بارد، كلما تذكرتُ تلك اللحظة التى أنزلتها فيها من السيارة وأدخلتها إلى تلك البناية الباردة والقاسية، أحقد على نفسى وأكرهها. الشعور بالندم يقتلني، ويمزق قلبي، ويجعلني ...

صمت فجأة، وأشعل السيجارة التى كانت بين أصابعه، سحب منها نفساً طويلاً ثم واصل قائلاً:

- كنت أتساءل دائماً فى قرارة نفسى، من أى طينة هذه المرأة التى تشاركنى الحياة؟ وكان هذا السؤال يجرني إلى سؤال آخر، كيف سنربي طفلنا وماذا سنعلمه، حتى إنّنى كنت أحياناً أحسّ بالندم الشديد على الإنجاب. كنتُ أتمنى لو أننى لمْ أصبح أباً، لأننى لا أستحق أن يكون لى طفل في هذه الحياة، ولا هي تستحق أنْ تكون أمّاً.

لمْ أترك له فرصة أن يتمم حديثه. شعرتُ أنّ الكلام يتزاحم فى حقلى ويتدافع، وكان لا بدّ أنْ أطرح عليه ذلك السؤال الذي خطر ببالي حينها:

- لماذا لم ترجع أمك للعيش معك الآن؟

ضحك من أنفه ضحكة قصيرة، ثم نظر في عينى بودّ، وخبا ذلك الحزن الذي برق في عينيه فجأة، قام من السرير ومشى خطوتين ثم التفت إليّ بحدّة قائلاً وقد هزمته دموع عينيه حينها:

– ماتت ..

قذف بتلك الكلمة الثقيلة فى وجهى ومشى صوب المطبخ، كدت أشرق بالماء والكأس فِي فمى، صمتُّ دون أنْ أسأل لماذا؟ أو ما هذا؟ وكيف ذلك؟

كنت أحسّ وكأن شيئاً ما انكسر بداخلى، قال كلمة واحدة فقط وكأنه لم يشأ أن يثقل سمعى بإجابة مفصلة، صراعه الداخلى كان يشتدّ لحظة إثر أخرى، سمعتُ صوته الساخر يقول لى: جيد أنها رحلت، لو أنها موجودة الآن أكيد كانت لتكون موجعة كثيرة علي وعلى مرضي.

اكتسى صوته بنبرة حزينة لما قال ذلك، ثمَّ ساد سكون وسطه، أحسست أنه سكون مشوّه وليس حقيقياً، رجعتُ من جديد أحاول تهدئة حالِي، أمرتُ جسدي بالتوقف عن الارتباك، إلا أنَّ نوبة ضحك مفاجئة اجتاحت أطرافى وهزّتنى بصورة معيبة كأنما أستخف بكل ما يستوجب الوقار. لا أعرف لماذا ضحكتُ بتلك الطريقة المخجلة، تطلع إلِي ببلاهة. كان أنفه يسيل. أما عيناه فقد خالطتهما حمرة، وبدا لِي وكأنه يريد أن يقول شيئاً لكن غصة أقرب إلى يد ثقيلة حزت رقبته. نظرت إليه ثم قلت دون انتظار:

– آسفة على ...

لم يترك لي الفرصة لأعتذر عما صدر مني، قال وهو يدعك عينيه بقوة:

– أتدرين بماذا أكرمنا الله.

صمت للحظة قصيرة ثم واصل بنبرة حزينة:

– أكرمنا بالدموع، ومنحنا تلك القدرة العجيبة على البكاء، يصل المرء إلى أعلى درجات الإنسانية حين يبكي.

نظرتُ إليه طويلاً، إنه الأستاذ الذي خربط أوراقي كلها، لم يخطر ببالي أن يقول هذا الكلام وفي هذا الوقت بالذات، أخذَ مجّة عميقة من سيجارته، ثم سألني وهو يبتسم بسخرية:

– ألا يخيفك الارتباط برجل مهزوم مثلي، خاصة أنني على بعد خطوة قصيرة من الموت.

ارتبكتُ قليلاً قبل أن يتيه صوتي ويضيع في الكلمات التي كنت أبحثُ عنها، قلت له بمزاح غائب:

– أنت دنياي وغرامي، واليوم الذي لن أراك فيه أكيد سأمرض وأضعف.

لا أدري لماذا قلت له هذا الكلام، أنا مشوشة كثيراً وخائفة، ولا أعرف ما أريد، الأفكار تتزاحم بداخلي، كانت ثمة أشياء غريبة تحدثُ معي، الخوف الذي شعرتُ به حينها كان كبيراً، كلامه كان يولد جروحاً عميقة جداً لا يمكن وقفها، كنت مثل قطة صغيرة تحت المطر، سؤاله دفعني إلى البكاء، فأجهشتُ بصوتٍ عالٍ وبدون توقف، حتى أفرغت كل ما في صدري من خوف ودهشة وشجن.

في ذلك المساء وقبل أن أعود إلى دار الطالبات حكى لي عن بعض الأشياء التي عاشها في طفولته، قال إنه عاش طفولة صعبة وقاسية، وخصوصاً في السنوات التي كان فيها أبوه على فراش الموت، يصارع جلطة دماغية شلّت جسده مرة واحدة وجعلته غير قادر على النطق والحركة، كان عمر الأستاذ حينها عشر سنوات أو أقل قليلاً، وكانت أمه تصحبه معها إلى

السوق لبيع الدجاج في أوقات الفراغ والعطل المدرسية، لم يكن له إخوة، كان وحيداً، وكانت الدنيا غير رحيمة به. كان ينهض من فراشه كلّ يوم على الساعة السادسة صباحاً، ليطعم الدجاج والخراف، وبعد ذلك يتوجه إلى المدرسة التى كانت تبعد عن بيتهم في أعلى الجبل بأكثر من أربعة كلومترات، وحين عودته بعد الظهيرة، يساعد والده المشلول على تناول وجبة الغداء، ثمَّ يغادر البيت مرة أخرى صوب السوق لمساعدة والدته في كسب لقمة العيش، كان يقضى يومه كاملاً بين طريق المدرسة وطريق السوق. قال إنه ما يزال يتذكر يوم وفاة والده، حدث ذلك في مساء ممطر من شهر ديسمبر، حين كان عائداً من مدرسته، سمع صُراخاً عالياً يخرج من عمق بيتهم، ركض بسرعة صوب ذلك الصوت، كانت أمه ساقطة على الأرض وتلطم وجهها وتقول: مات سندي يا ناس، عرف حينها أن والده قد رحل نهائياً عن هذا العالم، ولن يراه مرة أخرى يقف عند عتبة الباب وهو يدخن سيجارته الرديئة قبل أن يشل المرض حركته، في تلك اللحظة فقط أدرك أنه كبر فجأة وصار عليه لزاماً أن يتخلى عن طفولته ويدخل حياة الكبار المرهقة من باب اليتم والفقد والألم.

وأنا أسمع كلّ ما كان يتفوه به لحظة وجع، لم أسائل نفسى عمن ألقى بي بين تفاصيل هذا الرجل، فلقد كنت مأخوذة بنبرة الألم التى كانت تكسو صوته المبحوح، ولماذا أسائل نفسى في أمر لا جواب له، على أية حال فما من أحد سيسألني بعدما أحببتُ الأستاذ لماذا أحببته؟

أكره العودة بذاكرتي إلى طفولتى الجريحة، قالها وهو يتمدد فوق الأريكة، نظرتُ إليه ثم قلت:

– يجب أن أغادر الآن ..

رَدَّ وكأنه لمْ يسمع ما قلتُ:

- أتدرين يا تثريت ، أحياناً أفكر بالانتحار، لكن شيئاً ما يقف بيني وبين هذه الفكرة الجميلة، لا أعرف ما هو، لكن هذا شيء قويٌّ وله القدرة على جعلي متمسكاً بالحياة رغم أوجاع المرض وأحزان الوحدة.

مشيتُ صوبه بخطوات مثقلة، ثم قلت وأنا أنظر إلى عينيه مباشرة:

- انتحر،

ضحك طويلاً من كلامي، ثم أجاب:

- سأفعلها يوماً.

قالها لي في غمرة اليأس، وهو يحدق فيَّ بعينيه المستديرتين اللتين لم تكونا تنمّان عن أية دهشة بما قلته له، ضحك مرة أخرى وهو منقبض، وفي تلك اللحظة أتى دخان سيجارته يخز عينيه بينما كان القليل من الرماد يتساقط على ركبته العارية، أتطلع حولي كانت حينها العتمة قد بدأت تمد ظلها على السماء، والهواء صار أكثر برودة.

بعد برهة من الصمت سألته بتردد لمْ أعرف سببه:

- لماذا تريد أن تنتحر؟

ثم واصلتُ في قرارة نفسي، ما أسخف هذا السؤال، أكيد أنَّ له أكثر من سبب ليفكر هكذا. وفجأة انفجر غضباً بوجهي، رفع يده وضرب على وجهه بكل ما يملك من قوة، وصبّ جام غضبه على الذين صنعوا له هذه الحياة، قال إنه كان يتمنى أن يكون إنساناً عادياً بسيطاً لا يحمل بداخله كلّ هذه الأمراض النفسية والجسدية، وأن لا يحقد على أحد حتى وإن سبب له الألم، كان يتمنى أن يكون شاعراً كبيراً وأن تصل قصائده إلى كلّ أناس

الأرض. بل وكان يظن أنّ المال سينهمر عليه من كلّ مكان، حفلات توقيع، ودور نشر ضخمة، وفنادق كبيرة، صحافة أدبية ومقابلات تلفزيونية، ومحاضرات جامعية، وجوائز كثيرة.

شعرتُ حينها بخوف لمْ أعرف كيف أخفيه، وبلسعة برد قوية سرت بكامل جسدي، مشيتُ صوب غرفة النوم دون أن أعلق على كلامه بحرف واحد، لبستُ ثيابي بسرعة، وسحبتُ كتاباً من رفّ الخزانة وخرجتُ، مررتُ من أمامه وكأنني لا أراه، أطلق ضحكة في الفضاء، ثم انحنى على كأسه وشرب ما تبقى منها دفعة واحدة، وقبل أن أصل إلى الباب، سمعته يقول بصوت أجشّ:

- انتظري. يجب أن أوصلك.

- لا شكراً. أريد أن أتمشى بمفردي قليلاً.

توقفتُ قليلاً، أخذتُ نفساً عميقاً ثم سرتُ على نحو سريع ومتعجل كي أصل إلى غرفتي وأتخلص من حمولة الكلام الذي قاله لي الأستاذ، كنت أشتهي حينها فقط أن أرتمي في سريري وأنزع عن جسدي رائحته التي أثقلتني، وأنسى كلّ ما تفوه به لحظة سكر.

حين وصلتُ، سألتني صديقتي ليلى عن سبب تأخري كلّ هذا الوقت من أجل شراء قلم حبر، فقلت لها أنني بقيت أتصفح الكتاب الذي لم أكن أعرف عنوانه حتى تلك اللحظة، ومن دون تفكير أعطيتُ لها الكتاب، فقرأت العنوان بصوت عالٍ:

- مدام بوفاري

ثم واصلت:

– سبق وأن حكى لنا أستاذ اللغة العربية عن هذه الرواية.

لمْ أردّ، تمدّدتُ على السرير ونمتُ دون أن أندم على شيء وهذا ليس من عادتي، دوماً وقبل أن أغمض عينى وأغرق في النعاس، أسترجع كلّ الأحداث التى وقعت لي خلال اليوم بأكمله، أسترجعها بتفاصيلها الدقيقة، حتى إنّنى أعيد ترتيبها وصيغتها حسب ما أريد. أقول الأشياء التى كنت أشتهى قولها ولم أستطع، وأفعل كل ما كنت أتمنى لو أننى فعلته، أبكى، أضحك، أغنى، أرقص فى خيالى، أسبُّ وأشتم بكل حرية، وأحياناً أرسم في ذهنى تفاصيل حياة لا تشبه هذه الحياة التى أعيشها، وأصنع في عالمي المتخيل أشخاصاً على مقاس أحلامي.

كان من الممكن أنْ أخبر ليلى عن علاقتى بالأستاذ، لكن ثمة شيئاً ما كان يمنعنى، ربما خوفي من أن تصير القصة على أطراف الألسن وأسبب مشكلة لى وله، أو ربما لأننى أغار عليه من كلّ شيء يمكن أن يسرقه منى أو يسرقني منه، أو لأنني تعلمت أنْ أكتم أسراري في صدري.

أنظر إلى أجدير من النافذة، وأتخيل أشجارها الطويلة والكثيفة، وألمح من بعيد قمم جبالها التى يكسوها البياض، وأتعرف على بيوتها وأحجارها وأبوابها الخشبية المغلقة، وأسمع صخب نسائها وزعيق أطفالها الذين يلعبون طول اليوم، أنظر إلى الطريق الذى يقود من بيتنا إلى المسجد الطينى الصغير، أنظر إلى أجدير من أبواب الذاكرة المغمسة بالحنين.

مرت في ذهنى صورة ماماس طرية وساخنة، صورتها وهى تسير كما رأيتها آخر مرة، ارتسمت صورتها فى عقلى فى تلك اللحظة كما لو كانت صورة محفورة في لوحة خشبية، مرت أمامى بخلخالها الفضى السميك المشدود إلى كاحلها الأبيض، بشعرها الأسود الحالك الذي تردّه على

أكتافها. وفجأة مرت من أمامي مرة أخرى، لكن هذه المرة كانت ترتدي معطفاً كحلية وبوتاً من الجلد، اقتربت مني وقبل أن تحتضنني بذراعيها الراعشتين، دخل الأستاذ على المشهد هو أيضا كان يرتدي بذلة كحلية وأخذ يصرخ بها، "هذه الطفلة لي". ثم قادني من يدي وركض بي بعيداً. حيث لا شيء غير الكلمات التي دوماً ما تمنحني سعادة صغيرة ومؤقتة. حيث أفتح عيني وأراه مارّاً يحمل بين يديه حماقاته الصغيرة.

وقبل أن أعرف إلى أين كان يجرني الأستاذ، ايقظتني ليلى من الحلم ورفعت من صوت الموسيقى قليلاً، قالت إنها تريد أن ترقص وتظهر لي موهبتها في الرقص والإغراء، كانت ترتدي فقط الملابس الداخلية، كي تبدو أكثر جاذبية وإثارة، كان جسدها أبيض مثل خيط من الرشاقة البكر، وشعرها بتعرجاته المغرية يرتعش على وجهها، بدأت تتمايل واكتشفتُ أن لها قدرة تعبيرية عجيبة في هزّ المؤخرة، وفي لي الذراعين وإظهار الساقين الناعمتين وتحريك البطن. كانت تظهر ابتسامة لعوباً فوق شفتيها اللتين تلتهبان، سحبتني من يدي وقالت إنها ستعلمني رقصة "السلو". التصقت بي ولم أمانع، حركة للأمام، حركة للوراء، ألصقت ساقيها الساخنتين والمتمردتين على ساقي، وأخذتُ أنقل خطواتي مع خطواتها، لا أعرف لماذا أحسستُ من لمسة يدها بحنان ودفء غريبين، لقد كان جسدها اللين يهفهف من شدة الحرارة، كلما التصقت بي أكثر كنت أشتهي أن أمد أصابعي وأتحسس صدرها البض، وأمررها على شفتيها المرتجفتين، كدت ألتهم صدرها الصغير والمتصلب الذي يظهر شهياً .

لحظتها اكتشفتُ أنه من الممكن جداً أن يثيرني جسد امرأة ويشعل شهيتي، أكثر مما يثيرني جسد رجل، واكتشفتُ أن ليلى أقرب لي من

الأستاذ، ويمكن أن أحبها أكثر مما أحبه، ويمكن أن أمارس معها الجنس بنفس اللذة والنشوة التى أمارس بها مع الأستاذ، منذ ذلك اليوم وأنا أطلب منها أن ترقص لي شبه عارية، وأن تعلمنى رقصة "سلو" وأن تلتصق بي كما لو أننا جسد واحد يتفجر ينابيع شهوة ونشوة وإثارة وفتنة.

في مساء يوم من أيام رمضان، تسللت ليلى إلى جانبى في الفراش، ولمْ تكن ترتدي شيئاً، كانت عارية تماماً، في تلك الليلة مارسنا الحب أول مرة، قبلتنى وداعبتْ صدرى ومؤخرتي ولعقتْ ساقى وأصابع يدى، وقمتُ بدوري بنفس الأمر تماماً، في ذلك المساء اقترفتُ أول خطيئة، لكنها كانت خطيئة جميلة غيرتْ نظرتي لجسدي وللحياة، أدركتُ ساعتها أننى لو ذهبتُ أعمق فأعمق فى روحى لشعرتُ دون شك بفداحة ما قمتُ به. إلا أننى لمْ أترك لنفسى فرصة التفكير والندم، وقلت في خاطري ما دام جسدي وقلبى وأعماقى يشتهون جسد ليلى لن أمنع هذا الانجذاب والانجراف الذي يجرني إليها مهما حدثَ. رغم أنه كان انجرافاً باكراً وغير سوي، ورغم أنّه لن يكون دون ثمن، وعليّ أن أتحمل هذا الميول الجنسى وتبعاته مهما كانت قاسية على مراهقة في عمري.

المشتهي
كلاكيت أول مرة
المشهد II
عشرة أقارص

هبطتُ الدرجة الأولى وأنا أفكر في كلام الأستاذ حين صاح غاضباً في وجهي وكاد أن يصفعني، أتذكر تلك العبارة المزلزلة التي رمى بها دون أن يراعي شعوري، حين قال بالحرف الواحد: يجب أن نتخلص من هذا الحمل لأنّه كارثة. وحين سمعتُ هذا الكلام قلتُ له باستنكار مطلق: لست وحدك من يقرر هنا. لكنه كعادته لم يترك لي فرصة أن أنهي كلامي حين قاطعني بحركة من يده وهو يقول: لن أسمح مهما حصل بأن يظل ذلك الجنين في بطنك، أنا لستُ على استعداد أبداً لأصير أباً لطفل من مراهقة مثلك، كنت واضحاً معك منذ البداية، علاقتي بك لا تتجاوز الجنس، وأي شيء آخر لنْ يكون.

صمت قليلاً، ثم قال في نبرة اعتذار مبطنة:

- آسف لكن هذا الحمل هو كارثة بالنسبة لي.

ثم واصل بلهجة حادة:

- وغداً صباحاً سنتخلص منه.

في الواقع لمْ أرفض فكرة أن أتخلص من الجنين، أنا أيضاً أرعبني ذلك الحمل، لأنه سيدمر حياتي ويمكن أن يتسبب في قتلي على يد عمي أو ابنه، أو على يد ماماس، لا أعرف صراحة كيف حدث هذا الحمل لأنني كنت حريصة جداً أن لا يقذف الأستاذ سائله المنوي بداخلي، كان دوماً يقذف على بطني أو صدري أو على وجهي أو داخل فمي مباشرة.

لكن هذه الكارثة كما يسميها هو، جعلتني أعرفه جيداً، هو الذي كان يضفي حضوره على المكان سحراً على الدوام، صار في تلك اللحظة وحشاً بشرياً لا يرحم. وعرفتُ أن كل شيء فيه كان زائفاً وغير حقيقي، وأن القصائد الغرامية التي كان يكتبها لي لمْ تكن سوى حيلة ليصل بها إلى جسدي ويتمكن منه. كيف يتحول الإنسان في لحظة إلى كومة من الحقارة والنذالة والأنانية، اكتشفتُ أنّه لم يكن يحبني كما كان يدعي، بل كان يحب ممارسة الجنس معي لا أقل ولا أكثر ، كنت عاهرة في نظره وكنت المرأة التي لا ترفض له طلباً على الفراش، جعلني أحمل ذلك الذنب الذي سأعيش به طول حياتي.

لماذا الأشياء الجميلة تمرّ بسرعة، ولا تترك لنا فرصة الانتشاء بها؟

لو أنّه ترك لي فرصة أن أناقشه في الموضوع، ما كان ليحدث كل هذا الذي حدث، كنت سأوافق على إنزال الجنين، لأنني أنا أيضاً وببساطة لا أرغب به، لكن هو اختار الطريقة الخطأ التي يعبر بها عن رغبته، الأمر الذي أضفى على هيئته الكثير من الحقد والغضب، كرهته في تلك اللحظة، وتمنيتُ لو أنني لمْ أحبه ولمْ أتعرف عليه، تمنيتُ لو أنني أمسك عنقه بين يدي وأخنقه حتى الموت، وأنتهي منه ومن الجنين دفعة واحدة، تمنيتُ لو أن الأرض انشقَّتْ وابتلعتني قبل أنْ أسمع كلماته وأرى الكره المتطاير من عينيه.

في بداية كلّ علاقة تكون الدهشة والانخطاف عنوان الفصل الأول منها، وتأتي بعد ذلك فصول الخذلان والأوجاع والرماد متتالية. أما النهاية فتكون ضبابية وغير مفهومة ومليئة بالأسئلة التي لا جواب لها، لماذا وكيف

ومتى، دوماً ما تكون قصص الحبّ مغرية في بدايتها شهية عذبة سهلة وبسيطة.

ما معنى أنْ يغامر المرء بعمره كلّه فقط لأنَّ دهشة البداية أربكته وجعلته ينسى أن النهاية ستكون قاسية كالحجر؟ ما معنى أن نخسر أعزّ ما نملك في سبيل لحظات من السعادة الوهمية؟ ما معنى أن يحدث كلّه هذا دفقة واحدة؟

لمْ أكن لأدري كل هذه الحقائق لو أن الأستاذ استمر في كذبه وخداعه أكثر، أحياناً بعض الأشياء القبيحة التي تقع لنا في الحياة تجعلنا نكتشف كم كنا أغبياء، صحيح أنّ هذه الأزمة ستمرّ حتى وإن كلفتني الكثير، لكن أثرها سيظل يحفر في النفس إلى آخر العمر، وستظل الذاكرة محتفظة بتفاصيلها الصغيرة ولنْ يمحوها الزمن.

***

في صباح اليوم التالي، توجهنا إلى طبيب نساء بمدينة مكناس، معروف بأنه يقوم بعمليات إجهاض سرية لنساء في مثل حالتي، دخلنا إلى العيادة، كان ضوء النهار الشاحب ينير الأشياء بخجل، في تلك العتمة الضئيلة بدت الستائر ذات اللون البرتقالي وكأنها بلون أمغر، والجدران بلون الكريمة الفاتحة بدت داكنة أيضاً، ما زالت رائحة الطلاء جديدة ومتشبثة بهواء العيادة، شعرتُ بالبرد، كان صوت المطر الذي أخذ ينهمر بقوة في تلك اللحظات يذكرني بأننا في عزّ الشتاء، ومرت في ذهني ذكرى قديمة نائمة مثل برق مفاجئ أنار غرفة مظلمة مليئة بالأشياء المكدّسة، كتب وأقلام ملونة وورق ومذكرات وملابس وأحذية وزجاجة عطر رخيص مكسورة وفارغة وقلم حمرة، كانت تلك غرفة ابنة عمي جيهان التي

انتحرت في عزّ الشتاء بعد أن أرغمها اخوها على الزواج من رجل يكبرها باثنتَيْن وعشرين سنة. رحلت جيهان في ذلك اليوم الممطر دون رجعة، وخلفت وراءها جرحاً كبيراً في صدري، لم يكن يتوقع أحد أن تنتحر بتلك السهولة، ولمْ يكن يظهر عليها أي حزن أو رفض أو غضب.

كانت هادئة وشاردة طول الوقت، لو أنها لم تترك رسالة توضح فيها سبب انتحارها ما كنا لنعرف. منذ ذلك اليوم تكونت لدي قناعة قاطعة بأن الحزن العميق الذي يمزق القلب ويسكن العظام لا يظهر على الوجه، بل قد يبدو للآخرين مجرد حالة صمت خفيف لا تستدعي الخوف.

ماتت جيهان منذ زمن بعيد، لكنني إلى اليوم لمْ أنْسَ موتها المفاجئ بتلك الطريقة التي لمْ يسبق أن قام بها أحد في قريتنا الصغيرة، كانت هي أول شخص يعرفنا على معنى جديد للموت إنه الرحيل الاختياري، ويخبرنا أن ثمة شيئاً في هذا العالم اسمه الانتحار. ماتت جيهان في عزّ شبابها وفي عزّ الشتاء. وتحولت أجدير في ذلك المساء الممطر إلى حفنة من الألم. وانطفأت جيهان في تلك الليلة الباردة كما تنطفئ النجوم وهي في عزّ توهجها، وانحدرت نحو فراغات السواد ثم سدت وراءها كل أبواب الفرح ولم تلتفت خلفها، جيهان لمْ تكن تحب الحلول الوسطى أو أن تعيش كما تشتهي أو الموت بدون تردد. كانت هكذا أو هكذا شاءت أن تكون. كانت طفلة هشة وسط عالم لم يكن طيباً معها. كانت تجري وراء المعز وسط الجبال الموحشة والباردة، ربما كانت تحلم أن تعيش في مكان آخر غير هذه القفار والخلاء المحيط بها من كل الجوانب.

من أين تأتي كل هذه الأحزان المتلاحقة، الشبيهة برحيل جيهان؟ في مثل هذا الشهر الشتوي البارد ومثل هذا اليوم انطفأت جيهان كلياً

وأعطتنا درساً قاسياً في الحياة، وجعلتنا نصل إلى تلك النقطة العالية التي تتساوى فيها الكراهية بالحب، وتصبح الدنيا بلا معنى ولا غاية. حين أغمضت جيهان عينيها ونامت بهدوء لم يستطع أحد إيقاظها.

"يمكنني الآن أنْ أقول إنني حرة، وسأفعل ما أريد دون خوف "

جملتها الأخيرة التي ختمت بها رسالتها، كانت كافية بأن تلخص وضع المرأة الخاضعة إلى السلطة الأبوية، ولن تتحرر منها إلا بعد أن تموت، جيهان صرختْ في وجه الجميع وقالت إنها حرة، لكن صرختها تلك كانت هي الأخيرة. قالت كل شيء ورحلتْ، أفرغتْ صدرها من الأسرار وكتبت وصيتها الأخيرة بدم القلب، وتركت أشياءها تموت اختناقاً، لقد اشتركنا جميعاً في انتحارها لأننا نسينا أن نقول لها في ذلك المساء " كيف حالك " ونسينا أن نجيب عن تلك الأسئلة المعقدة التي كانت تضمرها في أعماقها والتي أوصلتها بلا شك إلى هذه النهاية القاسية، ها هي تعود شيئاً فشيئاً وتقتحم القلب والذاكرة بدون استئذان.

سحبتني يد الأستاذ من شرودي حين وضعها على ركبتي اليسرى، نظرت إلى الساعة الحائطية لمْ تكد تتجاوز الواحدة ظهراً حتى قامت الممرضة من وراء مكتبها، ودلفت إلى غرفة الانتظار، وأغلقت باب العيادة الخارجي المطل على درج البناء، ثم توجهت صوبي قائلة بنبرة جدية أكثر من اللازم:

- تفضلي معي، حان دورك. الطبيب ينتظرك.

وجدتُ من الغرابة بغض الشيء أن يغلق الباب الخارجي للعيادة، هذا الأمر جعلني أطرح على نفسي أكثر من سؤال، شعرتُ ببعض الخوف يتسرب إلى جسدي ببطء، وأحسستُ أن قدمي لا تطاوعني في الوقوف

والمشي، وأن معدتي تؤلمني، وتذكرتُ أنه لمْ يدخلها منذ غداء اليوم السابق سوى كأس شاي، أغمضتُ عيني للحظة قصيرة وأخذتُ نفساً عميقاً ثم وقفتُ وتبعت الممرضة دون أن أستدير نحو الأستاذ، الذي من المؤكد أنه كان يتتبعني بنظراته وأنا أدخل غرفة الطبيب. من المؤكد أيضاً أنه كان يودّ أن يقول لي شيئاً.

أتساءل أحياناً لماذا نحن هكذا لا نرتاح إلا إذا سببنا الوجع لمن يحبنا؟ من الصعب عليَّ أن أتحمل كلّ هذه الأحداث الموجعة وحدي، أحتاج إلى سند يحمل معي ثقل الدنيا التي صارت مثل سحابة جافة لا ماء فيها.

جلستُ على كرسي أمام الطبيب، وكنت أفكر محدقة في بخار الماء المتجمع على زجاج النافذة التي تقع خلف المكتب من الداخل، وفي قطرات الماء المنهمرة عليها من الخارج مشكلة جداول تنساب بسرعة وتعكر الرؤية، صوت قرع حبات المطر على الزجاج جعلني أتذكر أيضاً أنني لمْ أنم طيلة الليل.

استقبلني الطبيب بوجه باسم، فيما كانت الممرضة تضع أمامه على سطح المكتب مجموعة من الأوراق، رشف رشفة من فنجان القهوة الساخنة ثم مدّ يده عبر سطح المكتب الواسع وتناول ورقة واحدة نظر إليها مطولاً ثم وجه نظره صوبي قائلاً وهو يحكّ أسفل ذقنه:

– هل تُعَانين مِنْ أي مرض؟ هل لك حساسية من شيْء ما؟ هل سبق لك وأجهضت من قبل؟

– لا.

– حسنا تفضلي معي لأفحصك.

دخلنا إلى غرفة صغيرة بلا نوافذ ولها باب صغير يفتح داخل المكتب لا تتجاوز أربعة أمتار مربعة، كان بها سرير طبي وبعض الأجهزة، نزعت ملابسي كما طلب مني وتمددتُ على السرير أمامه، فحصني بدقة وكأنه يبحث عن شيء ما في جسدي، مسك ثَدْيَيّ بيده وضغط عليهما قليلاً ثم أدخل شيئاً معدنياً وسط مهبلي، أحسستُ لحظتها بحرج كبير، وصرتُ أتصببُ عرقاً. سمعته حينها يقول بعض الكلمات باللغة الفرنسية لكنني لمْ أفهمها، وبعد أن انتهى، طلب مني أن أقف أمامه وأستدير، بحيث يمكنه أن يراني من الخلف، وقفتُ على تلك الحالة للحظات أحسست أنها مرت بطيئة جداً، كان الطبيب يقف خلفي مباشرة، تفصلني عنه مسافة المتر أو أقل، كنت ألمح ظله معكوساً على الأرض وأسمع أنفاسه، لمْ أدر أي شيء أفعله في تلك الثواني التي كانت تزحف وكأنها ساعات طويلة، لم يمهلني الطبيب كثيراً، ثم خطا صوبي ووضع يده على مؤخرتي وضغط عليها بنفس الطريقة التي استعملها حين مسك ثديَيّ، وما إن لامست يده الباردة مؤخرتي، تقلصت عضلات جسمي كلها وشعرت أن قلبي يكاد يخرج من موضعه، لمْ يكن بمقدوري الاحتمال أكثر، أحسستُ أن العالم يزداد ضيقاً من حولي، وكل شيء في عيني حال إلى كلاب مفترسة تريد أن تنهش جسدي، التفت نحوه مذعورة، كان وجهه غارقاً في الاشتهاء، رأيتُ في عينيه بعض اللذة المستثيرة، لمْ تكن حركته تلك ضمن بروتوكول الفحص الطبي، كانت لمسة غير بريئة بتاتاً، اختلطتْ المعاني والأفكار في ذهني المشوش، وتمنيتُ في سري أن أكون مخطئة، وأن تكون لمسته لا تتجاوز لمسة طبيب لمريضته.

تراجعتُ خطوة للوراء، وأسندتُ ظهري على الحائط الذي كان بارداً في منتهى البرودة، كان الطبيب يبتسم في صمت، وصمته فاقم من حالة

الهدوء الخارجي المضطرب والمخادع، أثار سكوته حفيظتي وجعلني أكور يدي اليمني وأخفيها وراء ظهري في حالة استعداد تام لأضربه على وجهه إن حاول لمس جسدي مرة أخرى، أما يدي اليسرى فحاولتُ أن أستر بها تلك النقطة من جسدي والتي كانت عيون الطبيب تتأملها بشهوة واضحة، لكني لبثتُ صامتة، بينما استمرّ هو في النظر إليّ وعلى وجهه ابتسامة عريضة لا لزوم لها في مثل هذه اللحظات، حرصتُ على الهدوء والسكون وعدم التسرع في قول أو فعل أي شيء، كنت في تلك اللحظة أفكر فقط في التخلص من تلك المضغة القابعة في أحشائي، ولمْ أكن في مزاج يسمح لي بتفكير في قضية الطبيب المتحرش، غصتُ في صمت ثقيل وشممتُ رائحة الرغبة المتدفقة من ملامح الطبيب، "الصمت أسلم حلّ" هكذا قلتُ لنفسي.

لا شيء يهمني سوى أن أتخلص من الجنين الذي بدأ في تشكل في ظلمات الرحم، حتى إن كلفني هذا الأمر الكثير من الصبر على هذا الطبيب الحقير الذي يقف أمامي ويبتسم بطريقة غبية تثير في النفس الغثيان، عاد لي هدوئي النسبي، وبدأتُ جدياً في مراقبة خطواتي وسلوكياتي، لقد وضعتني الصدف والظروف السيئة في وجه هذا الطبيب الذي من المفروض أن يخلصني من هذا المخلوق النابت في أحشائي، وأقصى ما أتمناه الآن هو ألا أرى خطيئتي مجسدة بعد أشهر قليلة أمام بصري تسير على نفس الأرض التي أسير عليها، تحمل صفاتي وبعضاً من ملامحي، وتذكرني من حين لآخر بقصتي مع الأستاذ.

كانت الأسئلة الحادة كنصل سكين مسنونة تأكلني أكلاً، هل يريد هذا الذئب الذي يخفي أنيابه وراء ابتسامة صفراء كاذبة ويرتدي وزرة بيضاء

أن يضاجعني في مكان عمله؟ عند هذا السؤال كان جسدي يقشعر وتصيبني رجفة، وينزّ من جسدي عرق غزير بارد، بسبب القلق والخوف والحيرة التي انتابتني فقد أحسستُ بتلاشي اللحظات بكل تفاصيلها.

كانت تقتلني تلك التنبؤات المتلاحقة التي استوطنت عقلي وجسدي، وزجت بي نظرة الطبيب التي كانت تنم عن رغبة حقيقية في المضاجعة في أتون من الحيرة والارتباك لمْ يستطع جسدي إخفاءهما، خفق قلبي بشدة عندما رأيته قادماً إلي. وقف أمامي ولمْ تكن تفصلني عنه سوى مسافة شبر أو أقل. كان ينقصه فقط أن يلصق جسده بجسدي العاري ويخرج قضيبه ويحقق رغبته تلك دون أن يطلب مني ذلك، لكنه لم يفعل أي شيء مما خطر ببالي حينها، فقط قال بنبرة مبحوحة:

- لن نستطيع اليوم إجراء العملية.

صمت للحظات قصيرة ثم أضاف وهو يضع يده على كتفي:

- جسمك ضعيف جداً وقد لا يتحمل الأمر، سأكتب لك بعض الفيتامينات يمكنها أن تساعدك قليلاً، وفي الأسبوع القادم في مثل هذا اليوم سنقوم بالمهمة.

لبستُ ثيابي بسرعة وخرجتُ من المكتب أحمل في يدي ورقة مكتوب عليها أسماء بعض الأدوية، لحظتها كان المطر قد توقف، وكان بصيص من نور الشمس ينفذ من خلال النافذة فيكون بقعة من الضوء على شكل دائرة في منتصف غرفة الانتظار، كان الأستاذ ما زال جالساً مكانه كما تركته، وحين لمحني وقف لكنه لمْ يتقدم نحوي خطوة واحدة بل ظل متسمراً دون حراك، وحين وصلت إليه سألني مباشرة بدون مقدمات :

- هل تخلصنا منه.

- لا.

قلتها دون أنْ أفسّر له أي شيء، ثم تركته غارقاً في بحر الأسئلة التي حاصرته من كلّ جانب ومشيتُ صوب باب العيادة المغلق، انتظرت قليلاً حتى جاءت الممرضة وفتحته، نزلت الدرج بسرعة لأنه بدا لي طويلاً دون أن ألتفت للوراء، شعرت بأن الأستاذ لمْ يتبعني، ابتعدتُ قليلاً عن المبنى الذي توجد به العيادة ووقفت أنتظره تحت ظلّ شجرة، وبعد انتظار لمْ يستمر كثيراً، خرج من باب البناية وعلامات الغضب تظهر عليه، كان قادماً يمشي بتؤدة ويداه معقودتان خلف ظهره، كان منزعجاً جداً، غاض الدم من وجهه، وارتعش طرف فمه .. كان يرمقني بنظرة حائرة.

"لن أنتظر إلى الأسبوع القادم يجب أنْ نتخلص من هذه الكارثة اليوم" قال هذه الجملة الثقيلة، ثم سحبني من يدي بقوة، هذه المرة لمْ أستسلم لسطوته وغضبه، ولمْ يتملكني الخوف كالعادة، أفلتُ يدي من قبضته ثم صفعته بكل ما أملك من جهد، ارتسمتْ أصابعي على خده الأيسر، وضع يده مكان الصفعة. ابتسم قليلاً، ثم وأد ابتسامته سريعاً وتوجه صوب السيارة التي كانت مركونة بالقرب منا، في الحقيقة لا أعرف من أين جاءتني تلك الجرأة التي جعلتني أرفع يدي وأصفعه؟ وكيف تجاوزتُ حالة السكون التي كنت أعيشها طيلة اليوم؟

كنت في واقع الأمر قد وصلتُ إلى مرحلة لمْ يعد الصبر والصمت فيها ممكناً ولا مستساغاً، لقد لبثتُ زمناً لا بأس به واقفةً على حافة الخوف، تفكيري متوقف ومتجمد، وكنتُ عاجزة عن تفسير ما يقع لي، لكنني أدرك تمام الإدراك بأنني كنت أقترف خطأً كبيراً في كل لحظة كان يجب علي فيها أن أتكلّم وأصرخ وأبكي وأشتم، واخترتُ الصمت وتقبل الإهانة التي

فرضتها عليّ الظروف فرضاً، لذا بعدما صفعته تلك الصفعة المدوية التي سمعها كل من كان يقف بجانبنا، صار من الصعب علي أن أتراجع وأنكمش كما كنت في السابق وأترك له حرية التصرف في حياتي كما يشاء، قررتُ أن أواجهه منذ تلك الصفعة التي أيقظتني قبل أن توقظه هو، ربما كان من الضروري أن أظهر له رفضي القاطع لكل شيء يقوله ويقوم به. على أي حال صفعته أمام الناس وانتهى الأمر.

كان ينظر إلي وفي عينيه مسحة من الحزن الذي لمْ أعرف كيف أفسره، جلس قبالتي على الأريكة، وأشعل سيجارة كانت بين أصابعه منذ دخلنا إلى البيت، أنا الآن أرى ما أريد فعلاً، أراه مهزوماً وضعيفاً وبارداً للغاية ولا يقوى حتى على الحركة، قمتُ من مكاني وجلستُ إلى جانبه على نفس الأريكة، وكنت أسائل نفسي عن سبب هذه المسافة الكبيرة التي صارت تفصل بيننا رغم أننا كنا نجلس جنباً إلى جنب، وما أدهشني من نفسي حينها هو أنني صرتُ أحسه مجرد رجل عادِيّ لا شيء فيه يدعو إلى الدهشة، ولن ينفطر قلبي إن فرقتني عنه المصائر كما كنت أتوقع وأتخيل مراراً وتكراراً، حتى إنّي خطر لي أن أهمس في أذنه "لم تعد تغريني كما كنت، وصرت لا شيء. لا شيء إطلاقاً".

أصبحتُ فارغةً معطلةً فاقدة كل شعور، ولا أحس بحقيقة ما أعيشه، أدرتُ بصري صوبه وقلتُ له بعد أن تحول ذلك التجهم القلق الذي كان يغطي وجهي إلى ضحكة سريعة:

– حسناً .. لنفكر في طريقة أخرى تمكننا من التخلص من هذا الجنين.

قلتُ هذا الكلام وانتظرتُ بشيء من انقطاع النفس ردة فعله، اتسعت عيناه قليلاً ثم قال:

– ثمة حلّ بسيط يمكنه أن يخلصنا من هذه الورطة التي وضعنا أنفسنا فيها.

صمت ثم واصل بأسلوب بطيء هادئ، ومرهق للغاية:

– سنجرب بعض أقراص مسكنات الألم، لكن ...

– لكن ماذا؟

هزّ رأسه ثم ردّ متلعثماً :

– يجب أن تكون كمية الأقراص كبيرة لكي يسقط الحمل.

شعرتُ لحظتها أن ذهني مُخَدَّر ولا أستطيع التفكير، فقط كررتُ ما قال لي بالحرف الواحد:

– كمية كبيرة لكي يسقط الحمل.

– على الأقل 10 أقراص من فئة ألف مليغرام.

حينها لم يكن متاحاً تقديم اقتراحات أو الاعتراض عن أي شيء، كان رأسي يدور من الحيرة، ورغبتُ بالفرار من المكان ومن التفكير، نهضتُ وخطوتُ خطوة مترددة إلى الأمام لكن أوقفتني إيماءة منه، ابتسمتُ قليلاً وقلتُ له دون تفكير:

– حسناً .. موافقة.

أظنّ أنّه كان ينتظر بفارغ الصبر أن أوافق على اقتراحه الخطر. توجه مباشرة بعد أن سمع ما كان يشتهيه إلى غرفة النوم، غاب للحظات ثم عاد وبيده مجموعة من الأقراص المسكنة، وضعها دفعة واحدة في كأس كبيرة من الماء.

ناولني الكأس. شربتها رغم مرارتها وأنا أردّد في قرارة نفسي "إمّا أن أتخلص من هذا الجنين أو أتخلص من الحياة التي صارت لا تحتمل". كنت أفارق الواقع المرّ في تلك الأثناء لحظة لحظة، وأسير نحو قدر مجهول خطوة خطوة، أيقنتُ بأن العالم الذي طالما كنتُ أبنيه في خيالي قد تهاوى وأضحى مجرد حطام. كان عمري يسرق بسرعة مذهلة. وسط هذا الفراغ الأبيض كان يسمع فقط صوت ماماس وهي تردّد أحزانها القديمة التي دفنتْ تحت ركامات الرماد، كانت تحاول أن تمسك يدي لكنها كلما اقتربتْ أكثر، صارت المسافة بيننا أبعد.

ها أنذا قد حققتُ للأستاذ رغبته، أجهضتُ بعد ثلاثِ ساعات تقريباً، تخلصتُ من ذلك الكائن الذي كان يثقل جسدي، نجحت تلك الكمية الكبيرة من الأقراص المسكنة التي شربتها دون تردّد في إفساد الجنين. كدتُ أموت. نزفتُ كثيراً. أحسستُ أن جسدي لمْ يعد قادراً على الحركة، لمْ تكن الأمور بسيطة كما قال لي، كان الأمر أشبه بمحاولة انتحار. أو لعلها كانت محاولة قتل كاملة الأوصاف والأركان.

الآن صار لزاماً على الأستاذ أن يدفع ثمن الإهانة والإذلال والاستغلال والاحتقار والكذب والألم الذي سببهم لي، ولن أتركه يفلت من يدي دون عقاب، سأجعله يشعر بنفس الوجع الذي شعرتُ به، سأجعله يقف عاجزاً ويتأمل تفاصيل حياته وهي تنهار الواحدة وراء الأخرى، لنْ يكون خروجي من عالمه سهلاً كما يتوقع، لستُ أنا المراهقة الغبية التي تنسحب مهزومة ومجروحة من قصة حب واهية، لستُ أنا التي تفتح فخذيها لرجل ثم تتركه يغادر بسلام وكأن شيئاً لمْ يقع. سأعلمه

الكثير من الأشياء قبل أن أرحل بشكل نهائي. سأدفنه حياً وبعد ذلك أضع له نصباً تذكارياً يطل على مشارف المدينة.

أدين له بتلك اللحظة، وبتلك الخطيئة الأولى التي اقترفتها سهواً وعبثاً والتي كدتُ أموت بسببها، والتي من المؤكد أنها ستغير مجرى حياتي، ومجرى التفاصيل بداخلي، كبرتُ دفعة واحدة، وأصبحتُ أعرف ملامح الذئاب البشرية التي تتغذى على الأحلام والأجساد، صرتُ أشمّ رائحتها من بعيد جداً.

***

مرّ أكثر من أسبوع على الواقعة ..

أسبوع من التفكير والتخطيط لإجادة طريقة مناسبة للانتقام، طول الفترة الماضية وأنا أرسم في ذهني سيناريوهات متعددة، بعضها لمْ يكن واقعياً وكان أشبه بقصص الخيال العلمي أو قصص الأطفال، والبعض الآخر كان صعب التطبيق لأنه كان يتطلب مني تحضير أشياء ليست باستطاعتي في الوقت الراهن.

فكرت، وفكرت، وفكرت حتى تعب عقلي من شدة التفكير، ولمْ أتوصّل إلى شيء بتاتاً، شيء ما كان يغلي في داخلي كلما فشلت في العثور على وسيلة سهلة تمكنني من قتله دون أن أدخل السجن، ولكن كل الطرق كانت تؤدي في النهاية إلى الزنزانة، وهو لا يستحق حتى أن أضيع عمري خلف القضبان لأجله، كنت كلما أصل إلى فكرة ثم أتراجع عنها أحس أن فرصتي الكبيرة في الانتقام منه تضيع من بين أصابعي كما لو أنها حفنة ماء.

كنت في حاجة إلى الوقت لكي أشفى من ذلك الجرح الذي مزق جسدي بعنف، كنت في حاجة لمن أفرغ عليه قلبي ولا يفشي السرّ لأحد

آخر، سأكون حتماً بخير لو أنني حكيت قصتي لأمي أو لصديقتي ليلى على الأقل ولكن ... ولكن ثمة حواجز ومخاوف وعواقب وخيمة سأحصدها لو أنني فعلت.

من يومها وحقدي اتجاهه يشتعل في كل مرة أكثر، أسبوع مرّ ولا شيء تغير، أسبوع بشمسه ومطره وليله ونهاره وساعاته الطويلة والأمور ما زالت على حالها، سبعة أيام من التفكير والخيبة واليأس، وما زلت مصرةً على جعله يتذوق طعم المرارة التي ملأت فمي لحظة شربت تلك الكأس مرغمة.

أنا مصممة أن أذهب وراء حقدي حتى التهلكة، حتى لو صرتُ مجرمة وقاتلة لا يهم. المهم عندي في هذه اللحظة الملتبسة هو أن أمْحُوَ الأستاذ من الوجود، هذا الرجل الذي سرق الفرح مني وكاد يسرق روحي، الآن أنا التي سأختار له موته، وشكل موته، وزمن موته، ولنْ أعض على ظهر يدي ندماً بعد ذلك، أيعقل أن ينتهي كل شيء بهذه السرعة. ممكن جداً، لكن هذه النهاية الباردة والهادئة لا تروقني مطلقاً، أريد لقصتي معه نهاية درامية مثقلة بالدم والدموع، كتلك التي تحصل في الرواية والأفلام الأمريكية.

أقسم أن الحكاية لنْ تمرّ هكذا، على أحدنا أن يترك الحياة، ليعيش الآخر بسلام، وبطبيعة الحال هو من سيرحل لأنه لا يستحق أن يظل هنا أمام بصري يروح ويجيء وكأن شيئاً لم يقع، سأقتله ولا يهمني مطلقاً ما سيحدث بعد ذلك، شيء ينبت في أعماقي يشبه إلى حدّ بعيد تلك الوجوه المتهالكة التي كانت تقترب مني بِخُطى حثيثة كلما انتابتني الكآبة، وهذا كلّه لنْ يدفعني أبداً إلى التسليم واليأس، سأعيد إلى ذاتي كرامتها ولو ليوم واحد.

أغرقني الشعور بالحقد والغضب في دوامة من التفكير المسترسل الذي لا ينتهى حتى وأنا مغمضة العينين ونائمة، صرتُ بسبب ذلك الشعور المزعج أرى كوابيس لا تنقطع، وحتى تلك الكوابيس كانت تحثني على الذهاب وراء الحكاية حتى منتهاها، وكانت تجعلني أندب وألطم رأسي على الحائط الذي طالما كنت ألمح وجه الأستاذ مرسوماً عليه يوم كنت عاشقة.

أحياناً كنت أقول في خاطري، ماذا سأربح من وراء موته، هل ستبرد النار المتأججة في صدري حين يكون هو تحت التراب، هل فعلاً صرتُ أكرهه لهذه الدرجة المخيفة؟ هل ما فعله بي يستحق كل هذه الأحقاد التي حرمتني النوم؟ أيعقل أن يتحول الحب الذي كنت أتوقع أنه لن ينفد أو يتبدل إلى كره وعداوة؟ كيف يمكن للإنسان أن يغير جلده بهذه السهولة؟

منذ أسبوع لمْ أره في المؤسسة، تغيب عن العمل طول هذه المدة، وليس لي أي خبر عنه، وقررتُ أن أزورَه في بيته، ومعي مئة غرام من سم الفئران، خطرتْ على بالي فكرة أن أسممه حين لمحتُ البستاني الذي يعتني بحديقة دار الطالبات يضعه للفئران التي تزايد عددها بشكل كبير في المكان. قال إنه يمكن أن يقتل الإنسان ويجب أن نحترس بشكل كبير.

طرقتُ الباب مرتين ولمْ يفتح، ثم ناديتُ باسمه مرة واحدة ففتح الباب، كان في حالة سكر طافح، ويكاد يسقط من طوله، كانت تفوح من البيت رائحة كريهة جداً، خليط بين رائحة الخمر ودخان السجائر ورائحة العرق والأطعمة الفاسدة، الروائح الكريهة كانت تخنق أنفي وتملأ المكان بشكل يدعو إلى التقيؤ، لمْ يحدث يوماً أن كان بيته بهذه الوضعية المقرفة، رفع نظره صوبي وقال إنه يشعر بالتعب ويريد أن يرتاح قليلاً من العمل، صمت

قليلاً وهو يسكب لنفسه كأساً أخرى، ثم واصل بفتور : "شكراً على زيارتك المفاجئة، سنتكلم وأجيبك عن كلّ الأسئلة التي تدور الآن في بالك في مناسبة أخرى.

لمْ يترك لي فرصة أن أقول كلمة واحدة، وكأنه كان يعرف أنني جئت إليه محملة بالأسئلة والأحقاد الدفينة، كان منطفئاً ومنكمشاً على نفسه بشكل يثير في النفس الشفقة.

دعك ذقنه، هرش شعر رأسه، ضحك بصوت عالٍ، ثم أجهش بالبكاء كالأطفال، ثم ضحك مرة أخرى وهو يمسح دموعه بمنديل ورقي وصاح في وجهي : "أحببتك ولكن".

قام من مكانه بخطوات متعثرة، جرني من يدي إلى خارج البيت ثم عاد إلى الداخل وأقفل الباب في وجهي، استغرق الأمر دقيقة، لكنني أحسستها طويلة ومليئة بالصمت والترقب والمشاعر المتضاربة.

عدتُ من حيث جئتُ، صورته ظلت مرسومة في ذهني، وكلامه يتردد في أعماق قلبي، عندما رأيتُ دموعه تنهمر عدلتُ عن فكرة تسميمه، أصبح همي لحظتها هو كيف أساعده في الخروج من محنته القاسية، ما معنى كل هذه الافكار المتناقضة التي عصفت بعقلي في أقل من دقيقة، وكيف بكلمة واحدة استطاع أن يكسب تعاطفي ويحول الكره الذي كان ينمو بداخلي كالنار المشتعلة إلى شفقة.

"أحببتك ولكن .." لمْ أفهم سرّ هذه الجملة، وحتى إن حاولت ذلك لنْ أقدر، لكنني أحسستها صادقة ونابعة من أعماقه المتهالكة، قالها في لحظة ضعف وانهيار، وربما هذه هي اللحظة الوحيدة التي شعرت فيها بأنّه يتكلم

بصدق، أعجبني وقعها في قلبي لدرجة الشهوة، اشتهيته حينها وتمنيت لو أنني ضممته إلى صدري وقبلت شفتيه ونمتُ وأنا أشعر بحرارة أنفاسه.

***

هكذا بكل بساطة، مات الأستاذ ..

في مساء اليوم التالي وصل خبر انتحاره إلى المؤسسة، قال أحد زملائه أنه وجده ميتاً بعد أن شنق نفسه بحبل، وقد ترك رسالة تحت قدميه.

اختفى المشتهي واختفتْ معه تفاصيل يومه الأخير، لمْ أهتم لتلك الرسالة التي ترك خلفه، لا يهمني إن كتب اسمي بين سطورها، لكن موته الذي كان متوقعاً بالنسبة لي جعلني أعض أصابعي وأنتف شعري شعرة شعرة. صرختُ بأعلى صوتي. بكيتُ بحرقة على فراقه الذي جاء باكراً.

أنا منكسرة ومخي معطل، بعد هذه الصفحة لنْ يعود هناك شيء اسمه الاستاذ، لست أدري ما الدافع الحقيقي الذي جعله ينتحر، لست أدري لماذا، لكن الذي أعرفه جيداً هو أني شعرتُ ببعض الارتياح حين سمعتُ أنه مات، ولم يبق منه إلا بعض القصائد التي كتبها لي على دفتري، ورسالة ليست مهمة بالنسبة لي ولا تخصني في شيء بتاتاً.

شعرتُ في لحظة ما وأنا أحمل حقيبتي لأرجع إلى قريتي الصغيرة التي توجد على سفح جبل مكتظ بالفقراء، أن حياتي توقفتْ في هذه المدينة ولن أعود إليها مطلقاً، سأرجع إلى أجدير لأرعى الغنم وأساعد ماماس في صنع الزرابي وإطعام الدجاج وجمع الحطب. شعرتُ أن المدينة ضاقت بي حتى أصبحت تشبه عين إبرة، وصار لون السماء أسود وكأنها احترقتْ فجأة. موته جعلني أحس وكأن يداً خشنة سرقت ذلك الحلم الذي كان

اسمه الأستاذ. مات لكنه سيبقى في القلب وفي العظم حتى أغمض عيني أنا أيضاً ذات يوم. موته كان بداية مأساتي وليس نهايتها.

الرسالة التي تركها المُشْتَهِي أسفل قَدَمَيْهِ

ما زلتُ هنا حيث تركتني آخر مرة، معلق بين موت مستعصٍ وحياة بائسة، أقاوم لكيلا أموت دفعة واحدة، لكن التعب أنهكني والحياة لم تعد قادرة على فهمي، أو لربما أنا الذي لم أعد قادراً على فهمها. اللحظة لا أريد شيئاً. صوتي لم يعد قادراً على الصراخ وذاكرتي أثقلتها الهزائم ، وأشتهي فقط أن أغمض عيني وأنام على رعشة صدرك، في عينيك، أو بين أصابع يدك، قبل أن تأكلني الوساوس وأصير كومة من الرماد. تكفيني لمسة خفيفة من يدك لتوقظ جسدي من سبات الموت. هل تأذنين لي أن أغادرك الآن، ولا تنسي أن تكتبي على شاهدة قبري" هنا دفن المشتهي" .

المشتهي
المشهد III
كلاكيت ثاني مرة
كوكو شانيل

زغاريد .. زغاريد، وغناء، ورقص، وحناء.

تزوجتُ ابن عمي، هكذا بدون سابق إنذار، لمْ يرغمني أحد على ذلك، أنا التي اخترت الزواج منه عن قناعة تامة، وقررتُ أنْ أتوقّف عن الدراسة بشكل نهائي، وأرجع إلى حضن الأرض التي ولدتُ فيها وألقى مصيري الذي سيشبه مصير كل نساء القرية.

تنازلتُ عن أحلامي الكبيرة. وعن حلمي الأكبر في أن أصبح محامية وأدافع عن الفقراء الذين أنتمي إليهم. وأعيد فتح ملف أبي وأعرف حقيقة موته، وحقيقة ما نسب إليه من تهم ثقيلة، كنت أحلم أن أعيد إلى الحسين آيت عمور اعتباره وكرامته، وأجعل ماماس فخورة بي. ومن المؤكد الآن أن لا شيء من هذا سيحصل، أنا الآن نكرة، وسأعيش بقية حياتي هكذا.

استطعتُ أن أخدع زوجي ليلة الدخلة، كي لا يكتشف أنني فقدتُ عذريتي، جرحت نفسي بأظافري حتى سال الدم على الفراش الأبيض، وتظاهرتُ أنني أشعر بالألم، زوجي، كانت تلك هي المرة الأولى التي يمارس فيها الجنس على ما يبدو، وهذا الأمر ساعدني في خداعه بسهولة لمْ أكن أتوقعها، مرت ليلة الدخلة على خير ولمْ يكتشف أمري.

***

اليوم ..

مرّ على زواجي خمس سنوات، سنوات مرت بطيئة وجافة. صار عمري الآن واحداً وعشرين عاماً. لمْ أنجب أطفالاً، وزوجي يقول إنني عاقر، ولا

يستطيع أن يبقى حياً ويشقى على هذه الأرض بدون أولاد، ويحتاج من يسنده عندما يكبر ويشيخ وتصير الدنيا قاسية عليه، قرر الزواج مرة أخرى لكي تنجب له زوجته الثانية عدداً كبيراً من الأطفال، هو مقتنع تماماً أنه يستطيع الإنجاب، حتى رفض فكرة إنه من الممكن أن يكون عاجزاً. هو ككل الرجال يكره أن تلصق به صفة العجز. وتشير إليه الأصابع بالنقص والضعف. ويقال عنه إنه ليس رجلاً كامل الرجولة.

في لحظات كثيرة فكرتُ أن أخبره أنني سبق وكنت حاملاً في أحشائي جنينًا، كنت أرغب في تمريغ رجولته وفحولته في التراب كما كان يفعل بي كلما فُتح أمامه موضوع الأطفال والحمل والعقر. كان يسحق كرامتي بكلامه الجارح. رغم أنني في العمق كنت مؤمنة أنه هو العاجز ولستُ أنا. كلام الناس كان يسحقني ونظرة الشفقة كانت تجعلني أرفض الخروج من البيت لشهور طويلة، أوصلني هذا الموضوع إلى درجات متقدمة من الكآبة، وأدخلني في دوامة حزن لا ينتهي.

في السنة الأولى والثانية من الزواج، أرغمني على شرب بعض الأعشاب والوصفات التي لمْ أكن أعرف ماهيتها، لكي يصبح جسدي قادراً على استقبال جنين، كما أنه أخذني مرغمة إلى زيارة الكثير من المشعوذين والأضرحة والزوايا، لكي يبطل السحر الذي مسني وحال دون أن أنجب له ولداً كما يشتهي، ولكن مع مرور الوقت فقد الأمل شيئاً فشيئاً، حتى استسلم في النهاية وقرر أن يتزوج للمرة الثانية ونعيش نحن الثلاثة تحت سقف واحد.

رفضتُ الأمر بشكل مطلق، لكنني لمْ أخبره بذلك، ولمْ أخبر ماماس حتى. ببساطة لأنني قررت أنا أيضاً أن أهرب من القرية دون أن يعرف

أحد بالموضوع، لمْ أحمل معي شيئاً سوى بعض الدراهم القليلة التي تساعدني في السفر، وكانت وجهتي مدينة مكناس.

لستُ أدري ما الذي قذف بي إلى مدينة مكناس، لكن المؤكد أنها ستكون أقل قسوة من القرية التي جئتُ هاربةً منها بعد أن احترق كل شيء كان يخصني وتحول إلى رماد وبقايا، شيء بداخلي كان يقول إن ثمة سحراً ما في هذه المدينة التي تسمى مكناس، هي مختلفة تماماً عن باقي الأماكن التي رأيتها، أحسستُ وكأنني أزورها لأول مرة، رغم أنني زرتها في ذلك اليوم الذي لمْ أنْسَ تفاصيله إلى هذه اللحظة، يوم جئتُ أبحثُ عن من يخلصني من خطيئتي.

كلّ شيء فيَّ كان يرتعش، مررتُ من أمام عيادة الطبيب الذي تحرش بي في ذلك الزمن، بينما كنت في طريقي إلى المطعم الذي تعمل فيه صديقتي ليلى، تذكرتُ ملامح وجهه وهو ينظر إلى حلمات صدري، ورغم مرور هذه السنوات إلا أن ذاكرتي ترفض التخلي عن ذلك الحدث، يمر في ذهني وكأنه وقع البارحة فقط، شعرتُ بطعم الملوحة القويّ على طرف لساني ثم في كامل فمي، وتذكرت الأقراص العشرة التي شربتها دفعة واحدة، تراءى لي من وراء الملوحة وجه الأستاذ مبتسماً. هذا ما تبقى من ذكريات ذلك الزمن الذي أكلته مآسي الحياة التي كشرتْ في وجهي باكراً جداً.

***

ليلى..

هادئة .. بسيطة، جميلة وشهية كما عهدتها دوماً، كبرتْ وصارتْ امرأة في كامل الأنوثة، حتى أدق الأشياء الصغيرة فيها صارت أجمل، كان وجهها يفيض بالطاقة والحيوية، هي لمْ تتزوج ولمْ تسلك الطريق الذي

سلكته بل اعتمدتْ على نفسها ولمْ تنمح أحداً الفرصة في اللعب بحياتها ومصيرها.

بمجرد ما أن وصلت إلى ذلك المطعم الفخم الذي تعمل به، عرفتني على مديرها، وطلبتْ منه أن يوفر لي فرصة للعمل معهم في المطعم أو الفندق أو الحانة، استقبلني المدير في مكتبه على الفور.

في تلك اللحظة لا أعرف ما الذي حصل لي وما سرّ الحالة التي شوشت ذهني وجعلتني أقف أمامه مرتبكة، قال وهو يتفحصني من رأسي إلى أسفل قدمي:

- حكتْ لي ليلى قصتك، وأريد أن أساعدك على قدر المستطاع، خصوصاً أنك مطلقة وليس لك أي أحد في هذه المدينة.

مكث أكثر من دقيقة وهو يتأملني، ثم ابتسم ابتسامة عريضة وأضاف قائلاً:

- ما نوع الأعمال التي تودين ممارستها؟

أغمضتُ عينيَّ برهة من الزمن في محاولة مني لاستجماع ما تبقى من قواي الضائعة، وحين فتحتهما قلت له:

- أي شيء سيدي المهم أن أوفر المال كي أعيش.

سقطتْ قبعته من على رأسه، انحنى بهدوء ليرجعها، ثم اعتدل في وقفته بشموخ وقال :

- ما رأيك في العمل بأحد فروعنا بمدينة مراكش؟

ودون تفكير أو تردد أجبت :

- موافقة.

اقترب مني وهزني من كتفي بقوة، تشجعتُ ثم انتصبتُ أمامه وأنا أصنع توازناً كان من الصعب الوصول إليه بعد ساعات من السفر المرهق، خفتُ منه في لحظة ما، خيل لي أني بدأت مرة أخرى أخاف من أشياء لا وجود لها، انحنى بقامته العملاقة علي وهو يقول :

– اِرفعي رأسكِ قليلاً، أريد أن أرى وجهك.

فجأة بدأ الصحو يدخل أعماقي النائمة، رفعتُ رأسي ودفعتُ بصدري إلى الأمام، حتى صار ظهري مستقيماً، فتحتُ عيني عن آخرهما، رأيتُ بعض الأشياء المخيفة في عيونه رغم الصفاء الذي كان يشع بداخلهما، كان وجهه أكثر صفاءً.

تلمس وجهي ثم ادخل أصابعه بين شعري وبدأ يحك رأسي وهو يقول:

– حياتك ستتغير معنا، أعدك.

صمت قليلاً ثم واصل:

– جهزي نفسك غداً صباحاً ستكون وجهتك مدينة مراكش، وسيكون في انتظارك شريكي في العمل، واسمه زهير.

– شكراً على المساعدة سيدي.

– العفو..

في تلك الليلة حكيتُ كل الأشياء التي كانت تؤلمني لصديقتي ليلى، حكيتُ لها عن كل التفاصيل الدقيقة، عن ماماس التي تخلتْ عني ووقفت إلى جانب زوجي وهي نفسها التي طرحتْ عليه فكرة الزواج مرة أخرى، عن أخي الذي اختار الانضمام إلى الجيش ولمْ يرجع إلى القرية منذ أن

غادرها في ذلك الصباح الربيعي، عن زوجي الذي تزوج بفتاة في الرابعة عشرة من عمرها، وتركني على الهامش وكأنني لا أساوي شيئاً ما دمت لمْ أنجب له ولداً يحمل اسمه، عن الأستاذ الذي انتحر في غفلة من الجميع وترك خلفه رسالة وداع لا معنى لها.

كنت أتكلم بألم ظاهر، بينما كانت ليلى تصفف لي شعري، أفرغت قلبي دون أن أعرف هل كانت فعلاً تستمع لي وتدرك حقيقة ما أقول أم فقط كانت منهمكة بتطبيق ما وعدتْ به مدير المطعم، حين طلب منها أن تعتني قليلاً بمظهري، كم كنت أشتهي أن تحضنني بين ذراعيها، وتحس بكل كلمة كنت أبوح بها، كم كنت أود أن أصرخ بأعلى صوتي وأخبرها أن الحياة كانت قاسية علي ومحملة بالوجوه الحديدية الصارمة التي أتعبها السير والهلع والذعر. لكني كنت جبانة من كثرة خوفي من الظهور أمامها ضعيفة وغبية في نفس الوقت، تمنيتُ في لحظة ما، لو لمْ أخبر ليلى بشيء، وتركتها جاهلة كل التفاصيل المقلقة الخاصة بي، لو لمْ أزعجها بهذا الكلام الذي لا يفيد بشيء سوى أنه يحرك الجروح الدفينة وينبش الذكريات التي جعلتني أحمل في نفسي نزعة تدميرية قادرة على تحويل كل ما يحيط بي إلى كومة رماد أسود.

***

في الظاهر يبدو لي أنّ الحياة ستبتسم أخيراً في وجهي، أتأمل وحيدة الناس وهم يلتقون. يتعانقون. تعلو الابتسامات بينهم. نزلتُ من تلك الحافلة القديمة التي علا الصدأ أطراف أبوابها، أتصارع في زحمة الناس للحصول على حقيبة الجلد التي أعطتني ليلى من بين الحقائب الكثيرة التي كانت مكدسة فوق بعضها في الصندوق الجانبي للحافلة، سحبتها بقوة لمْ

تكن ثقيلة، كان بداخلها بعض الملابس الداخلية وفستان أسود قصير لمْ أَرْتَدِ مثله من قبل وبعض السراويل والأقمصة، وزجاجة عطر، وأحمر شفاه، ومشط. كلّ هذه الأشياء حصلتُ عليها من خزانة ليلى، المسكينة وهبتني نصف ما تملك من ثياب دون أن أطلب منها ذلك.

أوف. للصراحة أقول إني شعرتُ ببعض الحرج منها، لمْ أكن أرغب في أن أثقل عليها، لكنها كانت سخية معي أكثر مما كنت أتوقع. أدهشتني بعطفها، ووقفت بجانبي حين أدارت الدنيا وجهها لي قليلاً، ليلى ما زالت وفية للصداقة التي جمعتنا في ذلك الزمن البعيد، ما زالت جميلة كما عهدتها ولمْ تتغير. لحظة بأسي وجدتُ ليلى، كنتُ متعبة ومغمورة بالحسرة والألم والأسف، في لحظة ما رأيتُ دمعة ليلى تنزل على خدّها وهي تقول "تثريت، الحياة تستحق بعض التضحية". كان في وجهها بعض الأسرار الصغيرة التي لمْ تفصح عنها، ربما هي أيضاً عاشتْ ظروفاً قاسية ولمْ تكن الحياة بها رحيمة كما تصورتُ.

حملتُ الحقيبة في يدي ووقفتُ على حافة الطريق أنتظر زهير، أنظر إلى وجوه الرجال بتمعن، أحاول أن أتذكر ملامح الوجه الذي رأيته في تلك الصورة الفوتوغرافية التي كانت في يد مدير المطعم، وجهه هو الشيء الوحيد الذي كان يملأ دماغي المرهق المتعب، في رأسي كانت تدور آلاف الأسئلة المحيرة والاستفسارات التي لا تنتهي. المعلومات التي أعرف عنه لمْ تكن كثيرة لكنها كانت كافية لأجده وسط المحطة المكتظة بالمسافرين.

لمحته من بعيد. كان في باحة المحطة يقف وحيداً. يحمل في يده اليسرى علبة بيضاء بحجم الكف وفي يده اليمنى سيجارة. توجهتُ صوبه بخطوات سريعة، أكداس الأمتعة التي كانت أمامي مخيفة بكثرتها، تخطيتها

وواصلتُ طريقي إليه، أجرّ جسدي جرّاً. كان يتكئ على باب سيارة سوداء رباعية الدفع.

زهير شاب في عقده الثالث، طويل القامة نسبياً، نحيف الجسد ويخيل لمن يراه أنه يعاني من مرض ما، حليق الوجه، يضع نظارات طبية بإطار أزرق ولها زجاج سميك ولفرط سُمْكِهِ يجعل العين تبدو أصغر من حجمها الحقيقي وتمنحه شكلاً طفولياً وديعاً. يرتدي بذلة سوداء مع ربطة عنق زهرية، ملامحه تبدو صارمة وجافة، ورائحة عطره قوية لدرجة أنني شممتها قبل أن أقف أمامه.

حمل عني الحقيبة ووضعها في المقعد الخلفي للسيارة، ثم فتح لي الباب الأمامي لأجلس بجانبه، في الطريق ضحكنا كثيراً أو حاولنا على الأقل فعل ذلك، تحدثنا عن الحياة وكلانا كان لديه شيء في أعماقه لمْ يستطع قوله، ومع ذلك كانت ضحكاتنا تختلط مع صوت المذياع. شعرتُ معه بارتياح كبير وكأنني أعرفه منذ زمن بعيد، كان ثمة شيء ما غامض يقلص المسافة بيني وبينه.

أوصلني إلى شقة صغيرة مفروشة تقع في حي راقٍ وسط المدينة، وقبل أن يغادر أخبرني أن اليوم سيكون أول يوم لي في العمل، ثم أعطاني تلك العلبة البيضاء وقال إنها هدية بسيطة بمناسبة رأس السنة.

كما طلب مني أيضاً أن أرتدي فستاناً يليق بحفلة رأس السنة التي ستقام بالمطعم هذا المساء، أعطاني مفاتيح الشقة وخزانة الملابس.

كانت عقارب الساعة الحائطية حينها تشير إلى الخامسة بعد الزوال، وقبل أن أفعل أي شيء توجهت إلى المطبخ أبحث عن شي ء يصلح للأكل،

وجدتُ طبقاً من الفواكه، أخذتُ منه ثلاث تفاحات وموزة واحدة. أكلتهم واقفة.

اندهشت من هذه الأحداث التي وقعت في يوم واحد، أمس فقط كنت امرأة على حافة الموت، أتخبط في ويلات الماضي ومصائبه، هاربة من شطط زوج قرر قتلي ببطء وبرودة، أمام أنظار أمي وسكان القبيلة، أمس فقط كنت مجرد امرأة عاقر على هامش الحياة ولا تصلح لشيء سوى جمع الحطب والطبخ ورعي المعز، حتى ممارسة الجنس لمْ أكن أصلح لها. اليوم أنا في مدينة كبيرة، أجلس على أريكة من الجلد الأصلي وسط شقة فخمة تقع بالطابق الرابع، اليوم هو أول يوم لي بالعمل، ولا أعرف حتى هذه اللحظة طبيعة العمل الذي سأقوم به.

عند الساعة الثامنة والنصف تقريباً عاد زهير ليصطحبني إلى المطعم، كنت قد أخذت قبل مجيئه بقليل حماماً سريعاً ولبستُ ذلك الفستان الأسود الذي أعطتني ليلى، مع حذاءٍ بكعب قصير حصلتُ عليه من الخزانة التي كانت مملوءَة عن آخرها بالملابس النسائية الأنيقة، سألتُ نفسي لحظتها وأنا أتفرج على القطع المختارة بعناية والمرتبة حسب القياس. لمن تكون هذه الخزانة؟ هل هي ملك لمدير المطعم وقد وضعها رهن إشارة العاملات عنده؟ أسئلة كثيرة خطرتْ ببالي ولكن لمْ أكن أملك الجرأة الكافية لأطرحها على زهير الذي كان مستعجلاً جداً، وفي الطريق إلى المطعم قال لي بنبرة صارمة أتبعها بضحكة خفيفة:

– عملك بسيط للغاية يكفي أن تجلسي على طاولة مخصصة لك.

والابتسامة في وجه الزبناء، لا أقل ولا أكثر.

ختم كلامه بقبلة حارة على خدي، تفاجَأْتُ من تصرفه، لكنني لمْ أُبْدِ أي انزعاج، تظاهرتُ بتفحص مجلة لعرض الأزياء كانت موضوعة فوق لوحة القيادة، أضمرتُ دهشتي وحسبتُ أن تلك الجملة هي آخر كلامه، لكنّه أضاف:

- سأكون بقربك في كل لحظة، وأنصحك بالتعامل الجيد مع الزبائن، وكسب ودّهم، وعدم التصرف بحماقة. ممنوع التواصل مع أي كان دون موافقتي، ممنوع التدخين في المكان المخصص للأكل، ممنوع ربط علاقات غرامية مع زملاء العمل، ممنوع إعطاء عنوان سكنك لزبائن، ممنوع التأخر عن توقيت العمل، ممنوع التغيب بدون سبب مقنع. والأموال التي ستجنينها من زبائن المطعم، نقسمها بيننا مناصفة. وأي تجاوز سيؤدي بك إلى الشارع.

رفعتُ حاجبي الأيمن تعبيراً عن دهشتي العارمة، تجاهل النظر في وجهي واستمر في القيادة دون أن يضيف شيئاً، كان كلاماً غريباً شعرتُ معه بشيء ما يضغطُ على أنفاسي، كنت أودّ أنْ أسأله ماذا يقصد "بالأموال التي سأجنيها من الزبائن". لكن لمْ أقدر على النطق بكلمة واحدة، بل حولت ذلك السؤال إلى ضحكة ساخرة بعدما التقت نظاراتي بعينيه. وعرفتُ أنه فات الأوان على طرح السؤال، وصرتُ لسبب ما مجبرة على الصمت والتعايش مع وضعيتي الجديدة والتي ما زالت مبهمة وغامضة.

وصلنا إلى المطعم. كان المكان فخماً وراقياً، ويضم جزءًا خاصاً بالمشروبات الكحولية يزينه بيانو كبير الحجم وبعض الآلات الموسيقية الأخرى، وجزءًا آخر خاصًّا بتقديم المأكولات بجميع أنواعها، المطبخ المغربي .. المطبخ التركي .. المطبخ الآسيوي .. المطبخ الإيطالي.

أخذني زهير إلى المكان المخصص للشرب والموسيقى، جلستُ على مقعد مقابل لنافذة تطل على المسبح. كان المكان مزدحماً بالناس، كلّ الطاولات محجوزة، لهذه الليلة التي تصادف حفلة رأس السنة، سمعتُ زهير يقول لأحد حراس الأمن أن يفتح عينيه بشكل كبير لأن القاعة ستكون مملوءة عن آخرها، وستحضر شخصيات مهمة ولها وزن ثقيل في المدينة.

مرت على الأقل ثلاث ساعات وأنا جالسة على ذلك المقعد، وفوق الطاولة المستديرة وضع أمامي زهير منفضة سجائر وزجاجة ويسكي، رغم أنني لا أدخن ولا أشرب. لمْ أمانع حينها ولمْ أسأل، لمْ أكن أفعل شيئاً سوى أنني كنت أبتسم وفقط. أبتسم في وجه كل ما يصادفه بصري كالبلهاء، وأردّد في قرارة نفسي"هذا عملي ويجب أن أقوم به كما طلب مني". كنت أبتسم كدمية معروضة للبيع وسط ضجيج الموسيقى، وصخب الكراسي وزجاجة البيرة وأوراق اللعب ودخان السجائر.

لا أنكر بأنني شعرتُ بغرابة ما أقوم به وبسخافة تلك الابتسامة التي كنتُ أرسم على وجهي. حاولتُ تدارك الموقف بالذهاب إلى الحمام، استفدتُ من انشغال زهير بالحديث مع أحد الأشخاص، وتسللتُ دون أن يلمحني. وقفتُ أمام المرآة، عدلتُ هيئتي قليلاً، ثم وضعتُ أحمر الشفاه، وعدتُ إلى الطاولة، كان حينها زهير يقف عند رأسي ثم انحنى قليلاً حتى كاد يلتصق بي وهمس في أذني بنبرة لا تكاد تسمع من شدة الأصوات المختلطة التي كانت تملأ الصالة:

- لا تتركي طاولتك عزيزتي.

أصابني كلامه الأخير بالإحباط لكنني لمْ أرد، لقد تعودتُ على الصمت كلما واجهتُ موقفاً مشابهاً، وهذه المرة لنْ يكون الأمر مختلفاً. لمْ أكلف نفسي عناء الالتفات إليه، واكتفيتُ بإشارة من رأسي الذي كان مزدحماً بالأفكار المتشابكة، التقط زهير الإشارة وانسحب ببطء مستفز دون أن يضيف شيئاً.

تحولت دهشتي من الأحداث الجميلة التي وقعت لي إلى عصبية شديدة، وأنا أراه يعاملني وكأنني دمية بين يديه، راودني شعور قوي بأن أغادر المكان، لكن في نفس الوقتِ كنتُ أشعر بالخوف من فعل أمر كهذا. وقلت في خاطري، لربما حظيتُ بفرصة أخرى للحياة كما أشتهي وسط هذا الضجيج والفوضى والصخب والعري المحيط بي من كلّ الجهات.

ومن عمق الصخب وفجأة تقدم صوبي رجل قصير القامة، أصلع وسمين بشارب رفيع وحاجبين منعقدين، وتبدو الثمالة على وجهه، يدخن سيجاراً ويضع ساعة ذهبية اللون في معصم يده. هو نفس الرجل الذي كان يتحدث إلى زهير في اللحظة التي كنت متوجهة فيها إلى الحمام. كانت تظهر عليه علامات الثراء. بادر بالتحية ثم جلس على المقعد المقابل لي، فتح زجاجة الوسكي وهو يتأمل أدق تفاصيل جسدي من الأسفل إلى الأعلى، اكتفيتُ بابتسامة مجاملة، ونظرات باردة خالية من أي تعبير، سكبَ لنفسه كأس ويسكي ثم شربها دفعة واحدة. غمزني بعينه اليمنى وقال بعد ذلك وهو يمد يده لمصافحتي:

– مدين أنا للأرض التي أنجبتك.

عجزتُ عن تبين المغزى من كلامه، حاصرني بنظراته الفضولية المتفحصة ويده الممدودة إلي، مددتُ يدي وصافحته، أشعل سيجاره مرة

أخرى وتعمد نفث الدخان عالياً. صمت لبضع لحظات، تبادلنا خلالها نظرات ثابتة. وضعتُ مرفقي على الطاولة حين لمحتُ زهير يعطيني إشارة من بعيد ويطلب مني أن أتكلم مع ذلك الرجل، التقطتُ إشارته بسرعة وحاولتُ إظهار براعتي كأنثى تُتقن فنّ الإغراء. تقدمتُ إلى الأمام قليلاً، مد يده مرة أخرى نحوي لكن هذه المرة ليداعب خصلات شعري. قلت وأنا أصطنع بعض الدهشة والإعجاب:

- شكراً على العبارة الجميلة. محظوظة ...

أجهض كلامي بحركة حاسمة من يده ثم قال ضاحكاً:

- مستعد أن أدفع عمري كاملاً مقابل ليلة واحدة معك.

فهمتُ تلميحه وحاولتُ أن أقلب دفة الحديث، بما يتلاءم مع اندفاعه المخيف:

- كلماتك مليئة بعلامات الاستفهام.

- منذ رأيتك وأنا مشدود إليك. ولا أعرف لماذا.

أوقعني اعترافه المفاجئ في حيرة كبيرة، شعرتُ أنني أمام مُشْتَهٍ من نوع آخر، نوع لمْ أصادفه من قبل، وليست لي الخبرة الكافية في التعامل معه، نوع يدرك تمام الإدراك أنّ لكل شيء ثمنًا، وأنّ المال يمكن أن يشتري كلّ شيء. مسك يدي وأكمل بحبّ ممزوج ببعض الشفقة:

- أخبرني زهير عنك كلّ شيء، أعرف قصتك والظروف التي جعلتك تجلسين على هذه الطاولة، وأنا مستعد أنْ أدفع لك مقابل ليلة واحدة.

لحظتها استسلم عقلي المنهك لرغبته المحمومة، واستطعتُ بسهولة تجميع كل الإشارات التي التقطتُها منذ وضعتُ قدمي في هذه المدينة.

فهمتُ من كلامه أنني هنا أحمل صفة عاهرة، وأن جلوسي على هذه الطاولة يعني أنني أعرض جسدي مقابل المال، اكتشفتُ متأخرة بعض الشيء أن زهير ليس سوى قوادٍ حقير وسمسارٍ يوفر البغايا لأجل الدعارة.

حاولتُ الحفاظ على هدوئي وتركيزي، عقد الرجل الثمل حاجبيه وراح ينتظر ردي بتوجس، شعرتُ بنفسي عاهرة رخيصة للمرة الأولى في حياتي، والجميل في الحكاية كلها هو أن هذا السمين الأصلع يظن أنني متمرسة في الميدان، وهذا الصمت الذي أتعمده ما هو إلا وسيلة سخيفة ليدفع لي مالاً أكثر مقابل ليلة جنسية حامية.

أحنيتُ رأسي. أغمضتُ عيني وابتغيتُ أن أقنع نفسي بالذهاب معه وقضاء ليلة في فراشه، وحين فتحتها بعد برهة وجيزة كان يقابلني واقفاً بهدوء لا يبدو عليه أي انزعاج، رشف الرشفة الأخيرة من كأسه. أطفأ ما تبقى من لفافة التبغ ثم حك عينيه بتثاقل وتثاؤب. شعرتُ حينها بإرهاق شديد ولمْ أعد قادرة على تحمل كل تلك الأفكار المتضاربة التي كانت تدور في عقلي وتعذبني.

أصابني نوع من الغثيان قبل أن أقنع نفسي بضرورة ممارسة الجنس معه مقابل مبلغ من المال، ومواصلة هذه الحكاية حتى النهاية مهما كلف الأمر من متاعب. استغرقتْ معي عملية التفكير أكثر مما كنت أتوقع. جسدي لمْ يعد ملكي فقد صار معروضاً للبيع. شعرتُ بضحكة في أعماقي. تمنيتُ في تلك اللحظة لو أنني لمْ أهرب من قريتي الصغيرة، وبقيتُ تحت جناح أمي، تمنيتُ فقط ولمْ أفعل شيئاً، سوى أنني قلتُ له وأنا أمدّ يدي لأصافحه قبل أن يغادر:

– موافقة .. كم ستدفع؟

صافحني بكبرياء وشموخ شعرتُ به يصعد من أنفه النافر، ثم رد بلهجة آمرة وبإيجاز:

– لن نختلف أعدك. سأسبقك إلى الفيلا. وزهير سيوصلك بعد نصف ساعة من الآن. سأكون في انتظارك.

الغريب أو الاغرب ، هو أنني وجدتُ نفسي في لمحة بصر عاهرة، أشك وأنا أقص هذه الحكاية عليكم أن أجد من يصدقني ومع ذلك سأفعل حتى ولو لمْ يصدقني أحد، سأحكي لنفسي فقط. شعرتُ أن هناك شيئاً ما يأكلني من الداخل، كنت على بعد دقائق معدودة من دخول عالم الدعارة، شيء ما أكبر من الخوف والخيبة كان يتمدد بداخلي. شيء لا تستطيع التشبيهات الكلاسيكية المكررة في معظم الروايات وصفه.

رفعتُ بصري صوبه وقلتُ بخوف تسرب على خطوط وجهي:

– حسناً.

الخلاصة أني تورطتُ أو بعبارة أصح ورطتُ نفسي في لعبة لستُ على استعداد لخوضها، ولكي أقنع نفسي بضرورة تجربتها سأقول إن ظروف الحياة وقسوتها هي التي دفعتني لذلك، وأن هذه الورطة ليست سوى مجرد لعنة صغيرة تضاف إلى اللعنة التي حلتْ بي منذ زمن بعيد. ومن حيث أدري ولا أدري وجدتُ نفسي وسط غرفة ذلك الرجل الأصلع.

نظر إليّ بحدة. شعرتُ به يعريني قبل أن يلمسني حتى، كنتُ شبه مخدرة، وكان من اللازِم أن أستعيد صفاء ذهني، طلبتُ منه أن يسمح لي بأخذ حمام سريع لكي يرجع النشاط إلى جسدي المكدود. لمْ يرد، استمر صمته للحظات، أدركتُ خلالها أنه على عجلة من أمره، وحرارته لا تحتمل

التأخير، ابتسم وهو يبحثُ في ذهنه عن كلمات مناسبة، ليقول في الأخير بجدية مصطنعة:

- أشتهيك كما أنت على حالتك.

ثم أضاف بلهجة مشجعة لكلينا:

- كلما استمتعتُ أكثر. دفعتُ أكثر.

لمْ يكد يكمل العبارة حتى نزعتُ فستاني ورميتُ به على وجهه ثم مشيتُ صوبه بخطوات بطيئة مفعمة بالإثارة، نزع قميصه كدليل على استعداده لمواجهتي، وقفنا وجهاً لوجه. فاجأني حينها بسؤال مباغت لمْ أكن جاهزة للإجابة عنه على الأقل في مثل هذه المواقف:

- هل فعلاً طلقك زوجك بسبب أنك امرأة عاقر؟

لمْ تكد العبارة الغبيّة تغادر لسانه حتى انتابني شعور بالارتباك والذهول، عندها زادت مساحة الصمت بيني وبينه، اقترب مني أكثر حتى لامستْ بطنه المنتفخة بطني، وقف أمامي كتمثال من الشمع. شممتُ عطره الذي امتزج مع رائحة السجائر والويسكي والعرق. أغمضتُ عيني ولجمتُ لساني وحبستُ تنفسي لبرهة من الزمن. أحاط جسدي الضامر بيديه. كنت أريد أن أسأله عن من أخبره بكل هذه التفاصيل عني لكنه واصل بما يشبه الاعتذار المبطن:

- سألتك فقط لأعرف هل من الضروري أن أستعمل الواقي الذكري، أم لسنا في حاجة إليه.

صمتٌ لثانيتين استوعبتُ خلالهما فحوى سؤاله، ثم أطلقتُ بعدها ضحكة عابثة، ولا أدري لماذا طافتْ فجأة بذاكرتي وجوه كثيرة لأناس

جمعتني بهم بواكير طفولتي التعيسة، تراجعتُ للوراء قليلاً ثم ألقيتُ بجسدي على السرير. استرجعتُ كلّ انكساراتي بداية من موت أبي إلى لحظة هروبي من بيت زوجي، مرتْ في ذهني صور تلك الخدوش الغائرة التي ما تزال متحفزة للظهور في أية لحظة. عقلي مثخن بحكايات ترفض أن تغادر ذاكرتي. عيناي معلقتان نحو بصيص من ضوء مصباح خافتٍ يشبه الوميض. جسدي مرتهن لسطوة الشهوة. حاولتُ أن أنطق. أن أتفوه ولو بكلمة واحدة فقط، لكن الكلمات كانت تهرب مني في لجة الليل. أخذتني أوجاع الماضي حيث لا مجال للكلام أو التفكير.

وفي لحظة تشبه لحظة الانتقال من النوم إلى اليقظة، قلتُ له بمزاح غائب:

- لا شكَّ أنّ زهير قدم لك معلومات وافية عني.

احمرتْ أذناه خجلاً، ثم صفقَ بيده مؤيداً كلامي ورمى بجسده الثقيل على السرير بجانبي، وفي لحظة خاطفة وضع يده فوق بطني وراح ينزل ببطء وهو يقول بلهجة من يملك المال والسلطة والنفوذ:

- أنا أستطيع الوصول لأي معلومة أريد.

قلت بدهشة:

- أنت من المخابرات أليس كذلك؟

ضحك طويلاً من كلامي. ألمحه وهو يتحسّس برؤوس أصابعه فخذي وقد استغرق في تفكير عميق، في وضعي ذلك داهمني شعور قوي بالنعاس. لمْ أعد أسمع سوى حفيف الريح المنساب بين فرجات سَعَفِ

النخيل المحيط بالفيلا من كلّ الجهات. كان منتصف الليل في تلك اللحظة يوغل السير إلى منتهاه. لا شيء سوى الصمت.

مال على أذني وقال بلهجة مزاح ثقيل:

- أنا رجل أعمال وسياسي وأحياناً أكون رجل مخابرات وجاسوساً.

ثم بعد قليل أردف كمن يريد أن ينهي حديثاً لا يرغب في الأخذ والرد فيه:

- كلما استمتعتُ معك أكثر، دفعتُ لك مالاً أكثر.

لمْ أعر أي اهتمام لكلامه ومزاحه. سألتُ نفسي فقط حينها ماذا يمكنني أنْ أقدم له ليشعر بالمتعة؟ ضحكتُ في حَرَجٍ، مع تسلل أصابع يدي اليمني للاستقرار فوق حزام سرواله، فتحتُ الحزام ببطء متعمد، ثم دسستُ يدي بالداخل، مسكتُ عضوه المنتصب بقبضتي فتفاجَأْتُ من حَجْمِهِ الصغير الذي قد يكون بنفس طول سبابتي.

أذكر أنه قال لي في تلك اللحظة كلاماً غير مفهموم وكأنه نطق بلغة لا أعرفها، لمْ أنتبه إلى حالة الارتباك التي اجتاحته إلا عندما انتقلتْ ملامح وجهه من النقيض إلى النقيض. أدركتُ فجأة مدى الإحراج الذي تسببه له هذه النقطة بالذات. أمَلْتُ حينها أن ألطف من ارتباكه قليلاً وأخفف عنه ثقل الموقف. اصْطَنَعتُ الشعور بالنشوة واللذة بين ذراعيه، رغم أنني لمْ أشعر معه بشيء إطلاقاً سوى الاشمئزاز والتقزز. تعاملتُ مع تفاصيل جسده بنوع من التشهي وكأنه الجسد الذي طالما تمنيتُ لمسه في لحظات اهتياجي. جعلته يحس بكل نقطة في جسمه. وأوصلته إلى أقصى درجات الحبور، وأوصلني إلى أقصى درجات القرف.

صمتَ قليلاً لالتقاط أنفاسه، ثم قال سائلاً:

- أريد معرفة اسمك.

- تثريت .. اسمي تثريت.

خرج الجواب من فمي دون أن أشعر، ثم ندمتُ على إخباره باسمي الحقيقي، لمْ يكن من الصواب مطلقاً أن أبوح له باسمي خصوصاً في لقاء عابر كهذا، مرتْ فترة من الصمت ووجدتُ نفسي أقول له:

- هل أنت متزوج؟

رد بسرعة وكأنه كان ينتظر مني سؤالاً كهذا:

- في بداية شبابي صممتُ أذني عن كل ما يقال عن الزواج، الرتابة، الملل، وتزوجتُ في سنّ مبكرة، ومع مرور السنوات اكتشفتُ أنني تسرعتُ في ذلك القرار، وما حدث بعد ذلك زلزلني وهزني هزاً عنيفاً وخصوصاً عندما اكتشفتُ ذات ليلة، وفي أعقاب علاقة حميمية بيني وبين زوجتي، أنها نطقتْ اسم شخص آخر، وهذا الشخص هو صديقي المقرب.

أضحكتني الجزئية القاسية الأخيرة، فيما واصل هو بانفعال:

- صدمتني في تلك اللحظة وقررتُ عبثاً أن أراقبهما. وبعد خمسِ سنواتٍ من الزواج ضبطتها تخونني معه على فراشي وفي قلب بيتي. كنت على وشك أن أفصل رأسها عن باقي جسدها.

هزّ رأسه ثم نهض متوجهاً نحو علبة السجائر، سحب منها واحداً أشعله ثم أردف قائلاً بنوع من الحسرة:

– سبب لي هذا الأمر رعباً كبيراً وسقطة نفسية مدمرة. انتابتني مشاعر متطرفة وصلت بي إلى حدّ الهوس المرضي، ثم تطوّر إلى حالة جلد الذات بأنني كنت السبب المباشر في جعلها تخونني، وأنها لمْ تكن تستمتع معي على الفراش. هذه الحادثة أصبح لها وقع كبير في نفسي، وأنّ هناك شيئاً تحطم فيَّ ودمّر ثقتي في نفسي وفيمن حولي. كانت مخاوفي تهجم عليَّ بعد هجوعي للنوم. كانت تمرّ علي أيام أكون فيها في أسوأ حالاتي، أبكي بلا سبب وأضحك من دون أي مقدمات، وأثور لأتفه الأسباب. ومنذ ذلك الوقت قررتُ أن أضع كل تركيزي في الشغل، وأصنع لنفسي اسماً كبيراً في عالم العقارات والاستيراد والتصدير حتى صرت اليوم من كبار رجال الأعمال في إفريقيا والشرق الأوسط.

لا أدري هل أصدقه أم لا؟ في الحقيقة لا أعرف، ولكنّني من المؤكد تعاطفتُ معه، وأحببتُ إصراره وعزمه على تجاوز تلك المشكلة الصعبة والتي من المؤكد أنها لنْ تتركه وستظل تلازمه طول عمره.

نفث دخان سيجارته باتجاهي ثم أكمل:

– عندما وقعت عيناي عليك لأول وهلة لمْ أستطع تصنيفك، على الرغم من أنّ لدي قدرة لا يُسْتَهَانُ بها لتمييز النساء، أعرف الوقحة والخجولة والجريئة والصادقة والكاذبة والعاهرة والطاهرة بنظرة لا تخيب.

رغم أنّ كلامه أشعرني بالزهو إلا أنني قررتُ أنْ أسأله هذا السؤال:

– كيف تستطيع التفريق بين أصناف البشر؟

– تجارب الحياة وقسوتها قادرة على تعليمنا كلّ شيء.

أنهى حديثه المثير بزفرة حارة. رمى عقب سيجارته من النافذة. ارتدى ملابسه الداخلية ثم خرج من الغرفة وعاد بعد لحظات قليلة يحمل في يده ساعة نسائية وضعها على بطني وهو يقول بلهجة يغزوها التفاخر والتعالي:

- ساعة كوكو شانيل. وهذا أول موديل صدر قبل سنة فقط، واسمه **the premiere**. هدية مني لك بمناسبة أنني شعرتُ معك بلذة لمْ أجربها طوال حياتي. وأنك استطعتِ مصالحتي مع جسدي. أنت امرأة فاتنة وشهية وقادرة على كسب قلوب الرجال قبل جيوبهم بنظرة واحدة من عيونك. أتوقع أنه لا يوجد رجل فوق هذه الأرض له القدرة على الصمود في وجه غوايتك ورقتك ودفئك.

خيل إلي أن كلاماً آخر يوشك على مغادرة شفتيه، لكنه اكتفى بوضع قبلة على عنقي، راسماً على وجهه ابتسامة أعادته إلى هدوئه السابق. كانت الكلمات الأخيرة تشبه إلى حدّ بعيد تلك الكلمات التي كان يسمعني إيَّاهَا الأستاذ بعد نهاية كلّ علاقة حميمية. لكن المشتهي هذه المرة لا يشبه الأستاذ في شيء بتاتاً. المشتهي الذي يقف أمامي الآن هو رجل أعمال ناجح يملك كلّ الأشياء التي تنقصني.

شيء ما وصوت داخلي كان يناديني ويلح علي كي أستغل هذه الفرصة التي جادتْ بها الحياة علي فجأة وأحقق ذاتي قبل أن تضيع من بين ذراعي، وتذهب بي قسوة القدر إلى الضياع ونقطة اللاعودة. خامرني شعور واضح ومؤكد وجلي يقول إن الحياة ضربتْ لي أخيراً موعداً مع الدهشة. ويكفي أن أمسكها بيدي لتتحول أيامي من الرماد إلى الماء.

شعرتُ أنني قادرة على إعادة كتابة حياتي القادمة كما أشتهي، وأن أرش الألوان على ما تبقى من عمري. فلم رعشة الخوف تريد أن تبعدني عن

موعدي الأخير من الحياة، وتمنعني من السير صوب الدهشة، تراني أَعي في هذه اللحظة فقط، أنني على مرمى خطوة من حُلمي الذي كلّما اقتربتُ منه صار أبعد وأصعب. شعرتُ أنّني على وشك أن أضع يدي على كنز اسمه المشتهي.

مرتْ دقائق ثقيلة علي وأنا أتأمل تلك الساعة الفخمة التي تزينها أحجار بلورية مضيئة، لمْ يسبق لي أن مسكتُ بين أصابعي شيئاً ثميناً هكذا. كانت تلك أول مرة أحصل فيها على هدية من شخص لا أكاد أعرف عنه الشيء الكثير. لمْ أجسر على السماح لنفسي بسؤاله عن ثمنها، أو لمن كان سيهديها قبلي؟ ولا أي شيء آخر. اكتفيتُ بالتفرج عليها صمتاً.

استوقفتني هذه الهدية المفاجئة التي لمْ تكن في الحسبان، وضعتني وجهاً لوجه مع الذاكرة التي تختزن كل صور البرد والجوع والألم والمعاناة. كان وجع الماضي آخر ما يمكنني التفكير فيه لحظتها، لكن الذاكرة لها منطق مغاير. أحسستُ وكأن مطالبي كبرتْ ولا شهوة لي سوى أن أمتلك الكثير من المال مهما كلفني الأمر.

في الواقع لمْ أكن أظن أن يمنحني هذا الرجل القصير المنتفخ ساعة كوكو شانيل التي أسمع بها للمرة الأولى، ولا كان على بالي أن تكون الدعارة مربحة لهذه الدرجة، ولا أن يكون المشتهي سخياً لهذا الحدّ. في حقيقة الأمر اكتشفتُ في تلك الأثناء أنّ سلالم الحياة سهلة الصعود وتحتاج فقط إلى ضربة حظ وسرعة بديهة، واستغلال ما يمكن استغلاله. وأن الحياة لسبب أو لآخر تبتسم لنا من حين لآخر. ويجب فقط أن نكون مستيقظين لنبتسم لها نحن أيضاً.

الشيء الوحيد الذي لمْ أكن أنتبه له طول السنوات الماضية هو أنني امرأة فاتنة وشهية وجميلة وقادرة على إسقاط أي رجل مهما بلغت سطوته في شباكها، لأنني كنت أجهل وقتها قيمة وندرة ما أملك من تفاصيل جسدية غير عادية، لأنني كنت غارقة في الذل والفقر وسط جبال الأطلس المنسي. لأنني كنت غافلة عن هذا الجسد الذي غير مسار حياتي وجاء بي إلى هنا.

أيّ موعد عجيب هذا الذي وضعني على مرمى خطوة واحدة من مباهج الدنيا التي طالما كانت جافة. فكيف لا أرتبك وأنا ألمح أمام بصري تلك الفرصة التي حلمتُ بها دوماً، وكيف لا تعود تلك الهواجس لتسري في جسدي بحضرة مشهد لشدة غرابته يكاد لا يصدق.

كوكو شانيل هذا الاسم الذي فتح أمامي كلّ أبوب الحياة المغلقة، واختار لي طريقاً آخر وألبسني وجهاً آخر، وصنع مني امرأة تعرف كيف تصطاد الفرص، هذا الاسم الذي منحني لقب عاهرة النخبة وعشيقة كلّ رجال الطبقة المخملية.

أمسكتُ الساعة، وتأملتها طويلاً ثم وضعتها في حقيبتي الصغيرة، وأنا أقول له دون أن أنظر إلى وجهه:

– اعتبرني منذ اليوم عاهرتك الوفية.

ضحك كمجنون من عبارتي السخيفة، ثم ردّ:

– عندي لك شيء أفضل من تلك الساعة.

صمت قليلاً ثم أكمل:

– عن كل مهمة توكل لك سأدفع لك مقابلها عشرين ألف درهم.

قالها بطريقة لمْ تمنعني من الضحك والتهكم:

- هل تريد مني أن أقتل أم أهرب الكوكايين داخل مؤخرتي.

ضحك بعصبية مكملاً:

- العملية أبسط من هذا وذاك. كل ما في الأمر أن لي أعداء أريد ابتزازهم وازعاجهم والانتقام منهم. ودورك أنت هو أن تستدرجيهم بطرقك الخاصة إلى ممارسة الجنس معك، ثم تلتقطي لهم صوراً حميمية.

شعرتُ به يبذل مجهوداً للتعبير عن ما يموج في ذهنه من أفكار. قلت في دهشة كانت متوقعة مني:

- وماذا بعد؟

- أنا سأستعمل تلك الصور بطريقتي الخاصة. سأجعلهم ...

قاطعته بنبرة مرتبكة:

- وأنا؟

كنت أتوقع أنه سيوضح تفاصيل المهمة بشكل دقيق لكنه خَالَفَ توقعي واكتفى بإيماءة رأسٍ لمْ أستوعب المقصود بها، فأردفتُ:

- هل سيشكل عليّ هذا الأمر أيّ خطر؟

أجاب بلهجة واثقة وبنبرة صارمة لا تترك مجالاً لشك أو لمزيد من الأسئلة:

- ما دمتُ معك فلا تخشي شيئًا إطلاقاً.

صمت للحظات ثم سأل:

- هل أنت خائفة؟

- لا، لا إطلاقاً.

كان على وشك الاستمرار في أسئلته. لكنني قلتُ له باستسلام:

- لا مشكلة، موافقة على عرضك.

كبلتني الهواجس والأفكار المفكّكة، فلمْ يكن ممكنًا بعد كلّ الذي حدث أن أرفض طلبه وأتراجع خطوة للوراء. ولا كان ممكناً أيضاً أنْ أُفلت فرصة سهلة ستمكنني من ربح الكثير من المال. حسمتُ ذلك الجدال الذي كان يموج في عقلي، وقرّرتُ أنْ أتحاشى البحث عن تفاصيل أكثر. وقلت في قرارة نفسي "ما دام سيدفع لي تلك المبالغ الكبيرة. سأفعل كلّ ما يطلب".

قبل اليوم لمْ أكن أشعر بقيمة جسدي، وكنت على استعداد بأنَّ أقدمه لأي رجل سأحس اتجاهه ببعض الحبّ أو الشهوة، واليوم لا أحد يستحق جسدي سوى من يدفع مقابل ذلك أوراقاً نقدية وهدايا.

أغرتني هذه الفكرة، على الرغم من صعوبتها ونسبة الخطورة التي تحملها، لكنني سأجرب وفي أسوَأ الحالات لنْ أخسر أكثر مما خسرتُ سابقاً. ولذا سيكون عليَّ أن أجهز نفسي كما يجب لأدخل غمار التجربة الأكثر جنوناً. ولا شيء بعد اليوم يمكن أن يعيدني إلى حياتي السابقة وحزني السابق..

***

في صباح يوم الغد، استيقظْتُ مبعثرة الذهن على صوتْ المشتهي وهو يخاطب شخصاً من وراء النافذة، ومن خلال ما فهمتُ من كلامه أنه كان يتحدث إلى سائقه الخاص، لمْ أركز في تفاصيل الحوار الذي دار بينهما، بقدر ما كنت أحاول تصفية عقلي من الكوابيس التي طاردتني طول الليل.

كانت الأحداث تجري مسرعة أمامي، وحياتي تأخذ منحى جديداً لا يقبل التأخير، اقترب مني المشتهي ووضع ورقة صغيرة وبعض الأوراق النقدية ومفتاحاً في حقيبتي اليدوية، وقال وهو ينحني علي:

- لقد وضعت في الحقيبة عنوان شقتي ومفتاحها، يمكنك الانتقال للعيش فيها. وأعطيتك مبلغاً من المال لشراء ما ينقصك من ملابس وأدوات الزينة. سيكون السائق في انتظارك بعد أن تتناولي فطورك.

لمْ أنجح في إظهار سعادة مزيفة بكلامه، فأكمل:

- سأتكلف بموضوع زهير لكي لا يزعجك في هذه الفترة.

المشتهي
المشهد VI
كلاكيت ثاني مرة
أحمر شفاه

لماذا كلّ هذا الاستعجال المفاجئ؟

بعد مرور ثلاثة أيام على الاتفاق الذي جرى بيني وبين رجل الأعمال الثري، زارني هذا الأخير في الساعات الأولى من الصباح ليخبرني أنّه وصل يوم تنفيذ الخطة، وعليَّ أن أجهز نفسي هذا المساء للقاء بالضحية الأولى كما قال.

الضحية، محام في عقده الخامس متزوج من سيدة أعمال وله طفلان، والدافع وراء العملية هي صراعات قضائية قديمة كبَّدَت رجل الأعمال خسائر فادحة. مكان اللقاء المحتمل مقهى كابيتال على الساعة السادسة مساءً. الغرض من اللقاء إجراء لقاء صحافي مع السيد المحامي للحديث عن مساره المهني.

تسلمتُ من رجل الأعمال بطاقة مراسلة صحفية مزورة وجهازاً لتسجيل الحوار، وورقة مكتوب عليها مجموعة من الأسئلة التي من المفروض أن أطرحها على السيد المحامي أو بعبارة أدق الضحية الأولى، وأيضاً صورة فوتوغرافية له. ثم راح رجل الأعمال طيلة المدّة التي مكثها عندي يشرح لي كيفية إجراء الحوار بطريقة محترفة كي لا يكشف أمرنا.

غادر رجل الأعمال أو المشتهي أو السمين كلها أسماء تشير إليه الشقة، بعد أن أوصاني باستعمال كلّ الأساليب الممكنة من أجل إيقاع الضحية في الشباك. ثم تركني غارقة في مراجعة ذلك الكم الكبير من الأسئلة وترتيبها على النحو الذي أجده مناسباً، لمْ أكنْ بحاجة إلى التدريب لكي أطرح مجموعة من الأسئلة وتسجيل أجوبتها على ذلك الجهاز، وجدتُ أن الأمر

بسيط ولا يستدعي كل ذلك الارتباك الذي تملكني منذ مسكتُ ورقة الأسئلة في يدي.

أي جنون دفعني إلى الموافقة على خوض هذه المغامرة التي من المؤكد أنها ستكون مليئة بالتفاصيل؟ كان السؤال منذ البداية، كيف لي أن أخرج منها دون حصول أي خسارة حتى ولو كانت خسارة صغيرة؟

تلاعبتُ بالقلم بين يدي، من دون أن أحذف أي سؤال. فيما عاد ذهني لوضع سيناريوهات لما سيقع بيني وبين الضحية الأولى. تخيلتُ المشهد وأنا أحمل آلة التصوير الصغيرة التي جاءني بها المشتهي صباح هذا اليوم، والتقط صوراً كثيرة للضحية وهو في وضعية غير لائقة.

قطعتْ الصورة الشخصية للضحية حبل أفكاري. مسكتها بين أصابع يدي المرتعشة، وتأملتُ ملامح الوجه الذي تبدو عليه آثار الإرهاق واضحة على شكل هالات سوداء تحت الجفن. ولكن سرعان ما وضعتُ تلك الصورة جانباً. وتمددتُ على السرير وسحبتني وحدتي وحيرتي إلى ذكريات الأمس، أغمضتُ عيني ورأيتُ ماماس تشعل النار في الحطب والدموع تبلل خدّيها وتشعر بالاختناق. ورأيتني يوم زُفِفْتُ عروساً على ظهر حمار عجوز لا يقوى على المشي، وسط صفوف يتقدّمها أخي على بغله الأبيض، يحيط به بنو عمومتي. تذكرتُه يوم غادر إلى مدينة بنجرير للالتحاق بالجيش تلبية لرغبة أمي التي كانت تريد أن تخلصه من جحيم أجدير ومن قطعان المواشي وزرائب القرية. ماماس التي كانت تنتظر مثوله بين يديها كلّ مساء بوجهه الباسم الذي يحمل كثيراً من بياض وجهها واستطالته، ويركع محاولاً لثم ركبتيها، فتمد كفيها بغبطة رافعة وجهه، ناظرة في عينيه الباسمتين، ثم تحتضنه هامسة: لي أن أفخر بك ابناً.

ذكرياتي عن أجدير أصبحتْ بعد مكابدات السنين وبعد مرور وقت طويل، شاحبة لا روح فيها. كنتُ أنشد من عودتي إليها وزواجي من اِبن عمي دفء العائلة ونسيان حكايتي مع الأستاذ، فوجدتُ زمهرير الواقع المرير يطاردني بإلحاح حيثما أكون. لمْ أجد سوى العثرات، والفقر والبرد والأوجاع التي لا تنتهي.

كنتُ أعتقد بأنني بعد الزواج ستصير حياتي أقل تعقيداً وأقل ألماً، كنت أعتقد أنني قادرة على تخطي أزمتي بإنجاب طفل أو طفلين أو ثلاثة. لكن القدر كان له وجهة نظر أخرى، واختار لي مساراً مغايراً غير الذي كنت أتمناه. كنت أعتقد أنّ عودتي إلى تلك المتاهة ستكون بداية جديدة وقطيعة مع الماضي وسنوات المراهقة التي جاءت ثقيلة ومحملة بالمصائب. لكنني في حقيقة الأمر كنت واهمة واكتشفتُ لاحقاً أنها ما هي إلا فصل آخر من فصول التوهان الذهني والانكسارات النفسية والتشتت العاطفي.

أدركتُ أن زواجي لمْ يكن مبنياً على أساس صلب، وكان مقدراً له أن يتهاوى مع مرور السنوات ويسقط فوق رأسي مرة واحدة، كنت نهمةً وأريد معرفة تفاصيل التفاصيل التي كانت سبباً في ما وصلتُ إليه، لكنني لمْ أحصل على أي شيء في نهاية المطاف. وبقيتُ في حالة التوهان المكتظة بالأخطاء والهفوات التي حدثت قبل وأثناء وبعد زواجي.

تذكرتُ تلك اللحظة التي عزم فيها زوجي الزواج من امرأة أخرى، أنه لم يفاتحني في الموضوع مطلقاً، لكنه أرسل إلي جميع الإشارات التي يمكن أن أفهمها. هذا ما رأيته في الذاكرة وأرتني إياه حياتي الماضية...

في ذلك المساء الذي لمْ يكن يشوبه غيم ولا مطر ولا يختلف عن سابقه، ذهبتُ إلى السيد المحامي لإجراء اللقاء الصحفي. كان جالساً في ركن

معزول وهادئ داخل المقهى. شعره الأشعث المخلوط سواده القليل ببياضه الكثير. يضع أمامه مجموعة من الكتب وفنجان قهوة ومنفضة سجائر.

بعد الترحيب والسؤال عن الأحوال، أدخلني في متاهته سريعاً. لمحتُ في وجهه صفرة ذاوية. شعرتُ وكأنه خائف من شيء ما وغير مرتاح تماماً، كنت أستبين منه تضاريس الأسئلة الحارقة التي تُدلق من فمه بلا توجس، أسئلة مترصدة تحاول أن تعرف من أكون ومتى التحقتُ بالجريدة؟ وكم شخصية عامة سبق وأقمتُ معها حواراً؟ انهال علي بوابل من الأسئلة الثقيلة والمحرجة قبل أن أطرح عليه أي سؤال. لمْ يترك لي فرصة أن ألتقط أنفاسي. شعرتُ للحظة أنه لربما عرف أنني صحفية مزورة ولا أمتّ لهذه المهنة بصلة، وفكرتُ في الانسحاب من أمامه قبل أن تصير كارثة.

لامستُ طرف الطاولة بأصابعي، باحثة عن كلمات مناسبة لأقلب الأدوار- وأتخلص من أسئلته المزعجة التي لا تنتهي، وبعد صمت لمْ يدم طويلاً همستُ بخجل:

- هل تسمح لي أن أتبادل الأدوار معك.

تسلل الخبث إلى نبرته قائلاً:

- قبل أن ندخل في جو الحوار والأسئلة والأجوبة. ماذا تفضلين قهوة أم شايًا.

- شايًا بنعناع.

أشار بيده إلى النادل الذي كان يقف على مسافة قريبة منا، أخبره بطلبي. انتظرتُ انسحاب هذا الأخير ثم ملتُ بجذعي نحوه لأقول:

- سأطرح عليك الأسئلة بشكل شفوي ثم أسجل الإجابة على هذا الجهاز وأسلمه لقسم التحرير الخاص بالجريدة.

وقبل أن يعلق على كلامي شرد قليلاً في تأمل عنقي وصدري، فطرحتُ عليه سؤالاً سريعاً في محاولة لانتزاعه من شروده:

- هل يناسبك الأمر سيدي؟

أجاب من دون رفع عينيه عن صدري:

- طبعاً مناسب جداً.

كتمتُ انزعاجي من نظراته، مواصلة:

- دعني في البداية أقرأ على مسامعكم هذا التمهيد البسيط ثم نمرّ إلى السؤال الأوّل.

وضع قلمه على الطاولة مستسلماً، ثم رد بعد تردد طويل مع ابتسامة خفيفة:

- تفضلي.

- تعد مهنة المحاماة من أشرف المهن وأنبلها وأكثرها قدسية، فهي تتشارك المسؤولية مع الجهات القضائية الأخرى لتحقيق العدالة من خلال جهود "المحامين" الذين يحاولون الوصول إلى الحقيقة وإعلاء صوت الحق، عبر إيصال صوت مُوكليهم إلى الجهات القضائية. ووطننا الحبيب يزخر بمحامين أكفاء رغم ما يحفّ مهنتهم من متاعب ومصاعب. والآن دعنا نتعرف ونعرف القراء على بطاقتكم الشخصية. حدثنا بإيجاز عن بداية انطلاقة حياتك الدراسية؟ وتجاربك ...

قاطعني بحماس من يريد استعراض معارفه وشواهد الكثيرة:

– بدأت الانطلاقة من مسقط الرأس بمدينة الرباط درستُ فيها المرحلة الابتدائية والثانوية. ومن ثم انتقلتْ إلى فرنسا لإكمال دراستي الجامعية بجامعة السوربون وتحصلت على شهادة الماجستير في الحقوق، ومن ثم تحصلتُ على شهادة الدكتوراه في العلوم السياسية من جامعة هوفسترا بمدينة نيويورك بالولايات المتحدة الأمريكية.

شبكتُ أصابع يدي في محاولة بائسة للسيطرة على ارتعاشها، وشعرتُ حينها بالعرق يتصبب بارداً من جبيني، واكتشفتُ أنني أجلس أمام شخصية تملك كماً كبيراً من المعارف والشواهد والخبرات، وفطنتُ لحظتها أنّ مهمة الإيقاع به لن تكون سهلة كما أتوقع. تحاشى النظر إليَّ، موجهاً بصره إلى الطاولة الزجاجية. صمتٌ لفترة من الزمن ثم تمتمتُ بخفوت:

– كيف بدأت مشوارك العملي؟

ارتسمتْ على شفتيه ابتسامة مفاجئة، منحتْ وجهه شكلا مختلفاً وقال:

– بعد عودتي من أمريكا. بدأتُ العمل بعدد من الشركات العقارية وتدرجتُ حتى أصبحتُ مدير الإدارة القانونية. ومن ثم قمتُ بتأسيس مكتب خاص بالمحاماة بمدينة مراكش. وكذلك أصبحتُ عضواً لاتحاد المحامين العرب وعضواً بجمعية المحامين المسلمين بنيويورك، ومنذ ما يزيد عن ثلاثين عاماً أعمل في هذا المجال بكل وفاء وإخلاص وصدق وأمانة.

التقطتُ نفساً عميقاً، ثم طرحتُ عليه السؤال الثالث:

– ما هي أصعب قضية كسبتها ولا زالت أحداثها عالقة بذاكرتك؟

شعرتُ ببذله مجهوداً ضخماً لاستحضار ذكرياته، فمنحته ابتسامة مشجعة ومثيرة ساعدته على الاستمرار في التفكير. أسقطتُ القلم من يدي عنوةً، ثم انحنيتُ ببطء لأحمله ويظهر له جزءًا كبيرًا من صدري. في تلك اللحظة التي يكسوها الارتباك انحنى بدوره ليحمل القلم، وصارت المسافة بيننا حينها أقصر. شممتُ رائحة عطره وسمعتُ صوت أنفاسه. ومن المؤكد أنه هو أيضاً شم رائحة عطري وسمع صوت أنفاسي ورأى صدري على مرمى شفتيه. استطاع الوصول إلى القلم قبلي، حمله بين أصابعه ثم وضعه في جيب سترته وهو يقول:

– قضية أقمتها لصالح عمال إحدى الشركات. بعد أن تمّ طردهم دون أي تعويض عن سنوات العمل وفقدان الشغل. رغم أنّ صاحب الشركة كان من أقرب أصدقائي. انتصرت للعدالة في تلك القضية وخسرتُ صديقي.

وضع إبهامه وسبابته على ذقنه، متأملاً نقطة ما في الطاولة الزجاجية، وغاب في تفكير عميق. أفهمتني نظراته الشاردة أنه لن يضيف شيئاً. صمتنا طويلاً قبل أنْ أسأله:

– ما هوايتك المفضلة؟

– السفر وخاصة لحضور محافل دولية ومؤتمرات مهنية أو لأغراض تخص عملي.

وتابع بخبث غير معهود:

– ومشاهدة عروض الرقص الشرقي.

ثم التفت إلى جانبه خشيت أن يسمعه أحد. وهو يقول لي بنبرة منخفضة لا تكاد تسمع:

- لا تنسي حذف هذه الجزئية من جهاز التسجيل. لا أريد ...

قاطعته قبل أن يكمل كلامه بالقول:

- أما أنا فكنتُ أتمنى أن أصير راقصة باليه محترفة.

لمْ يعر عبارتي أي اهتمام. ألقى نظرة على ساعته بحركة أنيقة مدروسة، انتبهتُ فجأة إلى أنّ الوقت مرّ سريعاً، واقتراب عقارب ساعة كوكو شانيل التي كانت تزين معصمي من بلوغ الثامنة ونصف. ولمْ يعد من المناسب تكملة الحوار بعد أن صار فضاء المقهى مزدحماً. أبدى اعتذاره لي لالتزامه بمواعيد أخرى في هذا الوقتِ وصعوبة تسجيل الأجوبة وسط الصخب الذي صار يحيط بنا. لكنه وعد بمواصلة الحوار في الغد، مقترحاً اللقاء في مكتبه الخاص على الساعة الثانية زوالاً.

أشار بيده إلى النادل كي يدفع الحساب، ثم وقف مد يده ليصافحني. وقفتُ ومددتُ يدي صوبه، فانحنى بحركة مفاجئة وقبلها قائلاً:

- أعتقد أنّ مثل هذا الحضور الجميل لا تمتلكه إلا فنانة. ولا أظن أنّ صحفية يمكن أن تصل إليه. ومن المؤكد أنَّ بداخلك راقصة عبقرية تنتظر فرصة.

صمت للحظة. ثم أردف:

- سأحتفظُ بقلمك للذكرى.

رحتُ أستمع إليه وهو يردّد كلاماً أعرفه وسبق وسمعته من أكثر من جهة. ولكن فاجأني منه. وحينها شعرتُ أنه أخذ يبتلع الطعم. وأن

الوصول إليه ليس مستحيلاً. أحسستُ بنشوة كبيرة وكأنني حققتُ أول هدف ولمْ يتبقَّ إلا بعض الخطوات لأنال منه.

وهكذا أمضيتُ الليلة والصباح الموالي في غرفتي، أعد الدقائق انتظاراً للموعد المحدد، وأضع احتمالات لما ستكشف عنه الساعات القادمة. وأنقل أيضاً فكرة ملحة سيطرت علي خلال الليلة الماضية إلى خانة التطبيق.

***

بدا لي المحامي أكثر ارتياحاً مع لقائنا في تمام الثانية زوالاً. وإن لمْ يختلف شكله جوهرياً عما رأيته أمس. دعاني للجلوس على الأريكة في مكان منعزل بمكتبه بعد أن غادر كل الموظفين، التقطتُ نفساً عميقاً، مع إدراكي بأن كل الطرق تؤدي إلى ما جئتُ في تلك اللحظة من أجله، ابتلعتُ ريقي بصعوبة ثم سألته بعد برهة من الصمتِ:

- طيب، هل يمكن لنا أن نكمل الحوار أستاذ؟

حمل مطبوعًا سميكًا بين يديه، تصفحه لبضع ثوانٍ، قبل أن يقول:

- خلال مساري المهني الطويل الذي يمتد لأكثر من ثلاثين سنة، نذرتُ نفسي لكشف الحقيقة وإعلاء صوت العدالة، وتشهد أروقة وممرات وقاعات المحاكم على ذلك، لمْ أكن يوماً انتهازياً أو مخادعاً أو كاذباً عكس ما يروجه عني أعداء النجاح، ومن المؤكد أنهم أخبروك بذلك قبل أن نلتقي وجهاً لوجه.

احتقن وجهي بشدة، وخيل لي أن المكتب الكبير يوشك على كتم أنفاسي، فهتفتُ بانفعال:

- لا .. لمْ يخبرني أحد بشيء.

استخرج من ملف مجموعة من الأوراق كانت محفوظة في مغلف بلاستيكي، ووضعها على ركبتي، تمعنتُ في محتواها، فاكتشفتُ أنّ الأمر يتعلق بنسخة من تقرير محاكمة المتورطين في أحداث 1973 الذي جرى بالمحكمة العسكرية بمدينة القنيطرة، انهمكتُ في قراءة إحداها لبضع دقائق هتفتُ بعدها:

- هل كنت من بين المدافعين عن المتهمين في هذه القضية؟

أومأ برأسه إيجاباً، فتسلل إليَّ إحساس بأن قصة أبي موجودة بين صفحات هذا الملف، وأن السرّ وراء موته موجود هنا في هذا المكتب، وأن اسم الحسن آيت عمور الذي غاب عن لساني أربعًا وعشرين سنة عاد يحبو على ذاكرتي فجأة، تماماً كما كنت طفلة أحبو يوماً عند قدمه. كيف لي أن ألغي الحسين آيت عمور من ذاكرتي.

أطلقتُ زفرة حارة، قلتُ بعدها بهدوء المطمئنة الواثقة:

- دعني أعترف لك في هذه اللحظة، أن أبي كانت له علاقة مع تلك الأحداث، وأنه اختفى ولمْ نعرف عنه أي خبر.

افتر ثغره عن ابتسامة خفيفة، وقال بصوت هامس وهو يمدد ساقه باسترخاء :

- كنتُ أعرف.

توالت الصدمات عليّ وكانت كافية لتجعلني غير مصدقة لما يقع أمامي، كان الخط الفاصل بين الواقع والحلم لا يكاد يرى، وأحسستُ أن ما يجري معي ما هو إلا جزء من أحداث خيالية. كان من الصعب علي تصديق الأمر. ردّه المباغت أيقظ في أعماقي الشكّ والاستغراب.

سألتُه إن كان قد التقى بوالدي خلال تلك الفترة، فأجاب بنفس النبرة:

- نعم. التقيتُ به مرة واحدة قبل المحاكمة بأسبوع واحد.

- لكن ...

قاطعني قائلاً:

- لكن رجال الدرك أخبروكم أنه مات خلال الاشتباك وتمّ دفنه بمقبرة سرية. يومها لمْ يقتل والدك بل ثم اعتقاله قبل أن يرمى في معتقل درب مولاي الشريف بالدار البيضاء.

صمت لبرهة من الزمن ثم أردف:

- كانوا يخططون لقتله ببطء.

قلبتُ كلامه في ذهني عدة مرات، فوجدتُ أنه منطقي رغم ضبابيته، ومن المبكر قول أي شيء. رغم أنني كنتُ مدفوعة برغبة صادقة في كشف الحقيقة. حقيقة موت والدي واعتقاله، وأخطر ما في الأمر هو وجودي هنا أمام آخر رجل تحدث إلى والدي وجهاً لوجه. وكأنني أواجه ذاكرة أبي وماضيه الذي أجهله.

كنتُ أعتقد بأنني لنْ أجد جواباً عن الأسئلة الكثيرة التي تسكن ذاكرتي منذ الصغر، فأثبتت صدف الحياة العجيبة غباء ظني. حسين آيت عمور، اللغز المحير الذي ظل ينهش صدري طيلة السنوات الماضية. دهشة بعد أخرى ووجعاً بعد آخر، وأجمل صدفة كتبها لي القدر وجمعني بماضي أبي على طاولة مستديرة في مدينة لا أعرفها. الماضي الحقير، الماضي اللئيم الذي يطاردني بلا كلل ولا ملل. جاء من وراء قمم الجبال وثلجها وبردها

ورمادها يكرر نفسه ويقف أمامي ضاحكاً ومستهزئاً، يريد أن يصل بي إلى حافة الجنون.

والسؤال الأهم الذي فضلتُ الاحتفاظ به لنفسي وعدم طرحه على المحامي: كيف عرف أنني ابنة الحسين آيت عمور؟

تتابعت أفكاري، غير شاعرة بكل ما يدور حولي، إلى أن خاطبني المحامي فجأة، ليعيدني إلى الواقع وإلى مقعدي المقابل للنافذة الصغيرة المطلة على الشارع:

– كان والدك مناضلاً استثنائياً، يحمل على أكتافه ثقل قضية مستحيلة، كان رجلاً في زمن قل فيه الرجال. ما زلتُ أتذكّر ردّه على السؤال الذي وجهه له القاضي حين قال له: ما رأيك في الملكية؟ وردّ هو ببرودة قاتلة "لأنّني أحترم نفسي وأحترم قضيتي وأحترم سيادتكم، لن أردّ على هذا السؤال لأنّ جوابه واضح وجلي ولا يحتاج إلى مزيد من النقاش".

صمت قليلاً ثم واصل ببعض الحسرة:

– كان همّ والدك الأكبر حينها هو أسرته الصغيرة. كلمني عنك وعن أمك التي تركها حاملاً وراءَه، حكى لي عنك أشياء كثيرة، كان يحلم أن تكبري أمام بصره لحظة بلحظة، وأن يعيش معكم عمره المتبقي. لكن الحياة حرمته من ذلك الحلم وقذفتْ به في ظلمة المعتقل وزنازين النظام. في ذلك اليوم الذي التقيتُ به كتب لكم رسالة بخط يده وطلب مني أن أوصلها إليكم. لكنني فشلتُ في الوصول إليكم حينها وها هي الحياة تجمعني بك بعد هذا العمر الطويل لأحقق له أمنيته الصغيرة والأخيرة.

كنت أحاول استيعاب ما حكاه من أهوال، رفعتُ بصري صوبه وقلت:

– هل أعدموه؟

أطلق زفرة ثم واصل:

– تمّ الحكم عليه بالسجن المؤبد. ولكنه لمْ يتحمل وحشة الزنزانة ومات بعدها بعشرة أيام بسكتة قلبية.

صرختُ، أجهشتُ بالبكاء، ضحكتُ، ضربتُ وجهي، عانقني، قبلني، أغلقتُ عيني وفتحتها أكثر من مرة، صعقني بفاجعة وفاة والدي وكأنني سمعتُ الخبر أول مرة رغم أنني كنتُ أعرف سلفاً أنّ والدي مات ولن أراه أبداً، شعرتُ بألم كبير يتسرب إلى كامل جسدي. ضمني إلى صدره وتحسس عنقي بأصابع يده. ثم سحبني من يدي وأدخلني إلى غرفة صغيرة مجاورة للمكتب. شل الذهول قدرتي على فهم ما يجري لحظتها، دقائق معدودة كانت كافية أن تجعلني ممددة على فراشه وبين أحضانه، ضاجعني والدموع ملتصقة بخدي.

نظرتُ إلى المحامي بنظرة مشوشة وقلتُ له: كم كنت أتمنى أن أراه قبل موته، أن أقبله في هامته الطويلة. فهل كان يتمنى أن أكون بجانبه في لحظاته الأخيرة؟

رغم شعور ما لا أعرف كنهه اجتاحني، شعرتُ برعدة تسري في جسدي، سخرية من سخريات القدر عندما يمنحك ما لا ترغب فيه، تتالت تلك الصور البعيدة وبرزتْ إلى السطح، كسر قديم تعرض فجأة للانكشاف.

جسدي العاري ممدّد على السرير بينما أحلام اليقظة وخيالي يصلان بي إلى مسافات بعيدة ومخيفة، ثم يعقبها ارتطام قويّ على أرض صلبة. كنت أقول لنفسي إنّ القادم من الأيام سيكون أفضل من الأيام البائدة.

كنت في تلك المرحلة التي يلتفتُ فيها المرء إلى الوراء، وينظر بحسرة إلى ما فاته، يكفي بكيتُ بما فيه الكفاية، وخسرتُ بما فيه الكفاية، ورأيت من الشرّ بما فيه الكفاية، وعليّ أن أتخلص من تلك الصور القديمة الغارقة في تفاصيل الوجع، وأرحم نفسي من وطأتها القاسية، ومن ملاحقتها الدؤوبة والمستمرة لي، لا شيء يزعجني الآن أكثر من أنني لمْ ألتقط صوراً للمشتهي كما كان مخططاً.

طلبتُ منه أن يحضر لي حقيبتي اليدوية، بعد أن تركتها على الطاولة. أحضرها لي، وضعتها بجاني ثم رميت بجسدي فوقه، ورحتُ أقبل جسده ببطء من الرأس إلى أسفل القدمين، قبلاً مفعمة النشوة والرغبة والحزن والتوق. دلفتُ إلى دهاليزه الخفية، بعد أن هدأتُ وتلاشى قليل من حزني.

همستُ في أذنه بكلمات إباحية جعلتْ تفكيره يتوقف ويصبح شبه غائب عن الوعي، وأصابه الشتات والدوار من شدة اللهفة والشهوة والتشظي. توالت اللحظات بأسرع مما كنت أتصور. وعندما انتهينا غطّ في نوم عميق وترك لي فرصة أن أصورها كما أشاء وبالطريقة التي تناسبني. وبعد أن استيقظ من غفوته، طلبتُ منه أن يوقع اسمة على صدري بأحمر الشفاه.

ضحك كثيراً ثم قال:

- بهذا التوقيع سيدخل نهدك إلى التاريخ من أوسع أبوابه.

ثم أردف:

- سأجيبك عن سؤال أعرف تماماً أنه خطر ببالك، كيف عرفتُ أنك ابنت الحسين آيت عمور؟ لمْ يكن الأمر سهلاً بالمطلق. انطلقتُ من الاسم ومكان الازدياد المكتوب على بطاقة تعريفك. وتذكرت لحظتها أنني سبق

وسمعتُ هذا الاسم في مكان ما، ذاكرة بعيدة استيقظتْ فجأة. وقفز اسم الحسين آيت عمور إلى ذهني. عدتُ إلى ملفه وإلى رسالته التي ترك معي وكانت تحمل اسمك بين سطورها. وما زاد يقيني هو القرية التي ولدتِ فيها هي نفسها التي ولد فيها وكبر والدك. وقررتُ حينها أن أضعك وجهاً لوجه مع الذاكرة التي لا تعرفين عنها إلا القليل جداً. وأباغتك بالحقيقة دفعة واحدة.

ربّاه، ما كلّ هذه الصدف الغريبة التي تقع لي، وكيف لي أن أتحمّل كلّ هذا الثقل الذي رماه المحامي فوق ظهري دون سابق إنذار؟

تساؤل تبعه آخر فضلتُ كتمانه في أعماقي، بدا أن عدم تجاوبي مع كلامه قد أشعره ببعض الإحراج فصمت. هززتُ كتفي بلا مبالاة، ثم همستُ في أذنه:

- لا أرغب في معرفة المزيد من التفاصيل بخصوص هذا الموضوع.

نظر إلي بشيء من الدهشة، وقبل أن يقول شيئاً نهض مسرعاً من مكانه وتوجه إلى خزانة خشبية صغيرة فتحها ثم سحب من أحد رفوفها ملفاً أخذ منه ورقة. عاد إليّ، مددتُ يدي إليه دون أن أتفوّه بكلمة، أمسكتُ تلك الورقة بين يدي. داهمني شعور غامض وأنا أقرأ أول سطر منها "من الحسين آيت عمور إلى أسرته الصغيرة" . وجاء صوت المحامي ليخرجني من تفكيري:

- هذه هي الرسالة التي تركها والدك معي. وها هي الآن صارت ملكك وحدك.

نظرتُ مدهوشةً إلى تلك الورقة التي كانت تحمل خط يد والدي، تفحصتها وكأنني أقف أمام وجه أبي وذاكرته وماضيه وأوجاعه، عساني

أجد جواباً لدهشتي، وراح القلب يتهجى تلك الكلمات التي صارت مع مرور الزمان باهتة وجافة، رحتُ أتأمل سطورها المائلة التي كتبتْ لحظة ضعف وخوف. وخفتُ من مواجهة كلماته بحضرة المشتهي الذي كان يتابع بشيء من الدهشة ارتباكي، فقررتُ أن أضعها في حقيبتي دون أنْ أمنح نفسي فرصة الغوص في ذاكرة أبي التي هي أيضاً جزء من ذاكرتي.

***

عدتُ يومها إلى غرفتي مسرعة أريد أن أخلو بنفسي قليلاً، وأول شيء قمتُ به حينها، هو أنني أخذتُ صورة لتوقيع الضحية المكتوب على صدري، ثم فتحتُ حقيبتي وسحبتُ من داخلها رسالة أبي. وأنا أفكر في كل ما يمكن أن أجده من أسرار أبي. كنت ذلك المساء أشعر برجفة الحمى الباردة، وبرعشة ربما كان سببها توتري من مواجهة عبارات مرّ عليها أكثر من عشرين سنة، وها هي الأقدار تضعها بين يدي اليوم، كان صعباً عليّ أنْ أواجه حزمة من المشاعر المتداخلة. كان صعباً عليّ أنْ أصافح أبي بعد عشرين سنة وأجلس أمامه وأستمع إليه عساني أتعرف على النسخة الأخرى من ذاكرتي ومن حياتي. وأقول له "ها أنا تلك الصغيرة التي كبرتُ في غفلة منك. والتي لمْ تعد تتذكر ملامح وجهك".

أبكي دون أن أفهم تماماً أنني أبكي رجلاً لمْ أره سوى مرَّات. رجلاً كان أبي.

من الحسين آيت عمور إلى أسرته ...

مثل طفل فقد ثديي أمه، كهذا أشعر في هذه اللحظات .. لماذا لمْ ننتصر في أي حرب؟ لماذا فشلنا في صنع وطن يليق بنا؟ أقف اليوم على ركام الهزائم، أكاد أصرخ بيأس المناضل الذي راهن بكل عمره وخسر كل شيء

حتى عمره .. ضوء المسافات التي تبعدني عنكم، يجيلني إلى صمت الحجارة والأبواب الحديدية الثقيلة .. فكيف أتقبل أن تسرق مني صوركم وأنفاسكم؟

أركض في السماوات كل يوم بلا أجنحة. أجرب ارتعاشات قلبي في عمق الظلام الذي يسيجني من كل الجوانب والجهات، أراكم من هنا كمجنون يبحثُ عن سحر ما لا يعرفه غيره .. أضحك عندما أتذكر كيف تركتكم في مواجه قسوة الحياة، ثم أبكي مثل العاشق الذي فرقته الأقدار عن حبيبته.. أتأمل الوجوه الهاربة نحو زنازين الخوف.. دون أن أسألها إلى أين؟

بيني وبينكم مسافة الغيم والنجوم والرصاص والأصفاد والأحقاد و الكثير من الدم. أعض على شفتي السفلى ندماً على كل خطوة قمتُ بها دون أن أحسب لكم حساباً. أنا غيمة بلا وطن ولا أرض ولا سماء. لم يعد لزمان وقت نتقاسمه كما كنا قبل سنوات مضتْ.

تتريث صغيرتي .. وحدها ملامح وجهك الطفولي الجميل تؤجل انتحاري وتمنحني عمراً بلون الورد.. أنا الآن على بعد خطوة من النهاية التي لم تكن تخطر على بال أحد.. ماماس أخبريني فقط كيف يمكن لي أن أتحمل دمع النهايات؟ تائه أنا في مهب الحياة، خُلقتُ من حيرة الغرباء في أرض ترفضهم.. الحرية صارتْ بالنسبة لي هي أن أصرخ وأبكي وأنام.. وكلما نمتْ وجدتكم في كفي حفنة من فرح... وداعاً وداعاً ...

كانت الكلمات تتعثر على لساني، وكأنه كتب بلغة لا أعرفها. ربع ساعة من القراءة أو أكثر. تحدثت فيها أنا أكثر مما تحدّثَ هو. لأنه ترك بين

الكلمات الكثير من نقط الانقطاع ليشعرنا بثقل الصمتِ الذي لمْ تملأه الصرخاتُ.

كانت عيناي معلقتين نحو تلك الورقة التي أنهكها الزمان. لا شيء سوى سواد مختلط بسواد. سواد الحبر بسواد الألم. لا شيء سوى بقايا آهات ينفثها قلب حزين وغارق في ظلمات المعتقل.

كدتُ أستسلم للنوم. ولكن في تلك اللحظة كان يطفو وجه ماماس والأستاذ والفقيه والزوج على سطح ذاكرتي المثقلة. حضورهم بعثرني إلى أشلاء، ما أن أشعر بأنهم قد تلاشوا في دروب النسيان حتى تؤرقني ذكرى أو حادثة تطل بوجهها من هنا أو هناك.

الأستاذ ..

ما كدتُ أنساه ولو مؤقتاً حتى رأيته ماثلاً أمامي بشحمه ولحمه وذكرياته، كل ما أطمح إليه وأرغب فيه الابتعاد عن كل شيء يعدني صوبه ويفتح الجرح الذي كان سبباً فيه.

ماماس ..

كلما شعرتُ بغبن ملأني وجهها، ماماس كانت رائعة. قالت لي ذات مرة، أياماً قبل هروبي من القرية، وهي في أقصى درجات حزنها: أحياناً علينا أن نتنازل قليلاً كي لا تكسرنا عواصف الحياة. لا أدري ماذا كانت تقصد حينها. ولكن في هذه اللحظة وأنا أتسلى باستعادة أيامي المتعبة، أدركت معنى كل كلمة خرجت من صدرها الذي أحرقته الوحدة والفقد.

كنتُ أحدثُ نفسي بهذه الأفكار وأنا مستلقية على السرير، جافاني النوم حتى سمعتُ طرقاً أو ما يشبه الطرق على الباب الخشبي، في البداية

اعتقدتُ أن هذا من الخيال، ولكنني كنت على خطأ. سمعتُ طرقاً بالفعل على الباب. قمتُ من مكاني، تقدمتُ إلى الباب. كان الظلام في الخارج بدأ يطمس شوارع المدينة وبناياتها. ما إن فتحتُ الباب دلف رجل الأعمال إلى الداخل وبصوت خفيض قال لي أنه نسي مفاتيحه في السيارة. قبل أن يواصل بنفس النبرة:

- هل تمت العملية بنجاح؟

- طبعاً على أحسن ما يرام.

سلمته آلة التصوير وجهاز التسجيل. أخذهما بلهفة الذي أمسك عدوه من الذراع التي توجعه. ثم أعطاني كيساً ورقياً كان بداخله أوراق نقدية وهو يقول:

- وهذا هو المبلغ الذي اتفقنا عليه.

ثم أردف:

- الضحية الثانية. مخرج سينمائي يقيم هنا ...

وقبل أن ينهي جملته قلت بلهجة صارمة:

- كنتُ أريد الاستمرار في هذه اللعبة حتى النهاية، لكنني خائفة من المغامرة أكثر بنفسي. لنْ أقدر بعد اليوم على مواصلة هذه الأفعال التي قد تأخذني إلى السجن في أي لحظة.

احتقن وجهه، فتخلى عن هدوئه وقال صارخاً:

- سأدفع لك ضعف المبلغ السابق..

رسمتُ على وجهي علامات الاستنكار، فأضاف باذلاً جهدًا في إقناعي:

- سأشتري لك سيارة في مقابل هذه المهمة.

تطلعتُ إلى وجهه بتساؤل، ثم استندتُ بظهري على الحائط، مطلقة زفرة قوية حملتُ معها كل إرهاقي وحيرتي، وخاطبته:

- أريد شقة وليس سيارة.

أطلق ضحكة ثم نزع نظارته وفرك عينيه قائلاً:

- أمتلكُ شقة في مدينة الرباط سأمنحها لك. ولكن بشرط.

أزعجني كلامه، فسألته بحدّة لمْ أفلح في مداراتها:

- وما هو الشرط؟

أجاب بتلقائية:

- لكي أمنحك تلك الشقة يجيب عليكِ القيام بمهمتين، عوض مهمة واحدة. المهمة الأولى خاصة بالمخرج كما أخبرتك والمهمة الثانية خاصة بسياسي كبير وأحد رجال الدولة.

صمت طويلاً ثم أردف:

- ما رأيك؟

هنا أدركتُ أنّني أمام صياد يريد أن يصطاد عدوين بعصفورة واحدة. وقبل أن أعلق على سؤاله بجواب نهائي، أضاف وهو يضحك:

- هذه فرصة العمر يا تتريث. شقة فخمة، تطل نوافذها الأربع على مبنى البرلمان. ستكون باسمك وستصير ملكاً لك وأنت لم تتجاوزي بعد الخامسةَ والعشرين من عمرك.

كالعادة فوجئتُ بفراغي وبعصيان ردّ الفعل علي، قلتُ لنفسي مرة أخرى إني كالعادة أيضاً يلزمني الوقت لاستيعاب ما يحصل لي. بقيتُ لدقائق واقفة ومستندةً إلى الحائط، لا أدري ما الذي دفعني إلى الموافقة على العرض الذي قدمه لي. حين هتفتُ:

- موافقة على عرضك.

المشتهي
كلاكيت ثاني مرة
المشهد V
زجاجة شمبانيا

في صباح اليوم التالي أيقظتني زقزقة العصافير. نهضتُ صافية المزاج ونظرتُ طويلاً حولي، في ذلك السكون الغريبِ، كان كلّ شيء في مكانه.

رحتُ بعدها أتلهّى ببعض المشاغل التي كانت مؤجلة منذ البارحة، وكان صوت داخلي يلاحقني أثناء ذلك ليذكرني بموعدي مع الضحية الجديدة هذا المساء. ذلك الموعد المحتمل كان يربكني ويثير فيَّ مشاعر مبهمة وغامضة، ويجعلني أشعر أنَّ الساعات تمر ثقيلة وتجثم على صدري وتحدّ من حركتي. باختصار جعلني حزينة وأقرب للبؤس.

"الحياة واحدة، إذا قبلنا بقسمتها، خسرنا نصفها، خسرناها كلها"

لا أتذكر من قال لي هذه الكلمات أو في أي كتاب قرأتها، أو أين ومتى سمعتها، أو ربما هجستُ بها لنفسي يوما ما، أدرك الآن مدى صدقيتها وواقعيتها.

ارتديتُ نفس الفستان الذي لبستُه في مهمتي الأولى قبل يومين، فستان يظهر كلّ مفاتني الجسدية، بدءاً من صدري الممتلئ قليلاً وصولاً إلى خصري النحيل. رششتُ نفس العطر ووضعتُ القليل من أحمر الشفاه. ثم خرجتُ من البيت وكانت الساعة تشير حينها إلى التاسعة والنصف مساء. توجهتُ إلى الفندق الذي ستجرى فيه تجارب الأداء الذي يشرف عليها ضحيتي الجديدة مع أحد كبار المخرجين في المغرب.

شعرتُ وأنا أسلك الطريق إلى الفندق أنني أصبحتُ شخصاً جديداً ذا قلب بارد ومحايد لا يهمه شيء سوى جمع المال مهما كانت الوسيلة. ذَوَتْ

كلّ الصور المختزنة في خيالي ثم انطفأتْ. شعرتُ بتسامح كبير مع نفسي اتجاه نفسي .. وتجاه الآخرين. تذكرتُ فجأة ذلك الجنين الذي كان مدسوساً في ظلمات أحشائي. يوم قتلته هل كان قلبه بدأ ينبض أم كان ما يزال في طور التشكل. أغمضتُ عيني وانداحتْ أمامي صور متلاحقة لا تريد أن ترحمني من العذاب.

هل كنت بحاجة إلى كلّ هذه

العبثية والجنون. حتى أغير مسار حياتي؟

هل ستموت هذه الصور في ذاكرتي وغدي حين أحقق غايتي وأصل إلى النقطة التي أركض صوبها؟

كنتُ أشعر وكأنني خلقتُ وحيدة في هذه الأرض الفسيحة، وأنني عالة على الحياة وعلى نفسي أيضاً. أحزن وحيدة وأفرح وحيدة، أضحك وأبكي لوحدي، الشعور بالاغتراب هو قدري طول سنوات عمري الفائت والقادم ربّما.

لا أدري، فقدتُ القدرة على التفكير والإحساس بما حولي، أشعر أنّني تائهة ومشوشة ولا أعرف أين تسحبني تفاصيل الحياة التي كلما ظننتُ أنه صارتْ ممكنة وجدتها أكثر استحالة وقسوة.

في الحقيقة لا أعرف ماذا أفعل. أشعر أن شيئاً ما يتحكم في قراراتي، شيئًا عصيًّا عن الإدراك والفهم. أحسّ بأن الدنيا ضاقت بي وضقتُ بها. أشعر بحواسي الميتة تموت مرة لأخرى وببطء.

الشيء الوحيد الذي أعرفه هو أنني وحيدة، وأنتظر حصول معجزة صغيرة لتتغير حياتي إلى الأفضل، وأنني أغامر بجسدي وروحي دون تفكير أو تركيز. ربما فقدتُ السيطرة على نفسي.

كنت ذاهلة وشاردة الذهن. وقفتُ أمام باب الفندق. تقدم نحوي الحارس بخطوات مترددة وهو يقول:

- هل جئت إلى هنا من أجل التمثيل؟

فاجأني سؤاله وذكرني في الوقت نفسه بالسبب الذي جرني إلى هنا. رفعتُ بصري صوبه بتثاقل وقلت:

- نعم.

ردّ وهو يشير بسبابته إلى جهة ما:

- الطابق الأول على يدك الشمال.

كم كنت أتمنى لحظتها أن أغفو وأترك نفسي تغيب عن الواقع وأنسى سبب حضوري إلى هذا المكان، وأن أستريح قليلاً وبعدها فليسقط العالم إذا شاء على رأسي، لمْ يعد لديَّ ما أخسره أو أخاف عليه.

صعدتُ إلى الطابق الأول ثم تدحرجتُ متعبة وتائهة إلى الصالة التي كانت تقام فيها تجارب الأداء. صالة ضيقة جداً وتعطي الانطباع وكأنك تقف في طابور الأموات، كل واحد ينتظر دوره. إنها المرة الأولى التي أدخل فيها مكاناً كهذا. في الخارج الجو بارد والمدينة تمارس طقوسها الاعتيادية، ولا أحد يعلم عدد الأفكار المتناقضة التي كانت تتساقط الواحدة تلو الأخرى في داخلي، لم أكنْ أعلم قبل تلك اللحظة أن كل هذه الوجوه

المرهقة تحلمُ بالأضواء والنجومية. أعداد كثيرة تنتظر فرصتها لتُظهر للمنتج والمخرج قدرتها على التمثيل والتشخيص.

شيئان كانا يكبران بشكل مخيف في ذهني، هم الرغبة في جمع المال ولو على حساب كرامتي وجسدي والأستاذ الذي أوقف سفنه وسفني وتركني وسط هذه الدنيا التي حين تبتسم تكشر وتظهر ما خفي من أنيابها. تذكرتُ جلوسنا جنباً إلى جنب على الأريكة التي كانت تحتل صدر بهو المنزل. تذكرتُ أشعاره وأحزانه ولحظة موته.

فكرتُ في أنْ أستلقي على أحد الكراسي الفارغة، لكن خوفاً غامضاً دخلني. وفكرتُ أن أخرج من المكان بسرعة، ولا ألتفتَ ورائي حتى أصل إلى البيت، ولنْ أتنفس حتى أحمل حقيبتي وأعود إلى أجدير وأواجه ماماس وأحكي لها عن الصغيرة والكبيرة.

شعرتُ برغبة كبيرة في الضحك حتى الجنون، وكدتُ أطلق العنان لضحكتي الصاخبة لولا أنّ أحد الحراس نادى باسمي حينها. تقدمتُ بضع خطوات إلى الأمام فتح لي الباب، فدلفتُ إلى الغرفة التي كان يوجد بها شخصان أحدهما منتج والثاني الذي يعنيني أمره مخرج.

بادرتُ بالتحية ثم أردفتُ بنبرة مخنوقة:

– أنا لستُ مهتمة بمجال التمثيل، ولا أحلم أن أصير ممثلة. أنا هنا فقط لأحكي لكم قصتي بالطريقة التي أريد.

صاح المخرج بأعلى صوته:

– وأنا مهتم بأي شيء يقدمه قلبك لأنه سيكون في قمة الصدق.

أهو الذي ارْتبَكَ لحظتها أم أنا؟

شعرتُ فجأة وأنا أتأمل ملامح وجهه، أنني قلتُ شيئاً مختلفاً لم يقله كل الذين وقفوا اليوم أمامه، ساد شيء من الصمتِ والإرباك. قال وهو يريد كسر ذلك الصمتِ أو إثارة فضولي:

- أتدرين أنني متحمّس جداً بعد هذا الكلام الذي سمعته منك؟

أجبتُ بصوتْ بريء، وباعتراف لمْ أعِ ساعتها كل عواقبه القادمة علي:

- أما أنا فلستُ متحمسة إطلاقاً.

ردّ ساخراً:

- شكراً إذن على حضورك اليوم.

ثم واصل:

- لماذا جئتِ إذن؟

تأملني وراحتْ عيناه تتسكعان في ملامح وجهي، وكأنهما تبحثان عن جواب لسؤال لمْ أكن أتوقعه، قلتُ في نظرة مثقلة بالهواجس:

- من أجلك.

ضحكَ لهذه العبارة التي تحمل بين طياتها الكثير من التفسيرات ومثقلة بالوعود والإغراء. قال وقد ملأته كلماتي غروراً وزهواً رجلياً:

- ولذا أجزم أنني سأكون عند حسن ظنك.

لستُ أدري ما الذي أشعرني بالمبالغة في كلامه. لكن وداعته فرضتْ نفسها عليَّ. صمت منتظراً مني ردة فعل ما. كانت عيناه مثبتتين على زاوية ما في وجهي، لمْ يضف شيئاً ولكن عينيه ظلتا تقيسان طولي وعرضي ملمتراً ملمتراً.

رد المنتج بنبرة مازحة:

- هل أغادر أنا القاعة؟

ضحكنا كثيراً. وشعرتُ بسعادة وكأنني أضحك لأول مرة منذ سنوات. كنت أتوقع أن تسير الأمور بصعوبة، وكنت قد أعددتُ جملاً ومواقف كثيرة في هذا اللقاء. ولكن أعترف أنني لمْ أكن أتوقع بداية كهذه. فقد تلاشى كل ما أعددته. وتبعثرتْ أفكاري أمامه.

كان ما يزال تحت وقع تصريحي ذلك، ولمْ يسألني عن اسمي. عن تاريخ ميلادي. ولا أين كنت. ولا عن قصتي قبل أن أقف أمامهم اليوم. عن علاقتي بالتمثيل. ومن حيث لا أدري وجدتني أقول:

- اِسمي تتريث. ولا أعرف لماذا اختار لي أبي هذا الاسم؟ لا أحدَ سواه يعلم. ولدت بين جبال الأطلس المتوسط في قرية صغيرة تسمى أجدير تقع بالقرب من مدينة خنيفرة ذات شتاء من سنة 1968، طولي الآن لا يتجاوز المتر والسبعين فيما أعتقد، ووزني يناهز السبعة والستين كيلوغراماً، هذا إن لم يكن أقل، لأني منذ مدة طويلة لم أقس وزني.

أشار لي برأسه أن أواصل، لكنني لمْ أجد ما أضيف، فقال:

- المطلوب منكِ هو تجسيد مشهد فتاة تعرضتْ للاغتصاب.

ثم أضاف المنتج:

- معك خمس دقائق لا أكثر.

شاهدتُ في لحظة يصعب علي وربما على كل الناس الذين يشبهونني تحديدها، وجهي المضيء وهو يتحول إلى رماد دقيق كانت الأرياح الليلية تلعب به وتعبثُ بجزيئاته. وبدون شعور مني بدأتُ أتحسس صدري وكأن

ضربة قوية أحدثت به فجوة كبيرة. أحسستُ بألمٍ في وجهي، تلمستُ عنقي بأصابع يدي التي كانت ترتجف بشدة، ثم تهالكتُ على الكرسي الذي كان موجوداً في زاوية الغرفة، وبدأتُ أستعيد اللحظات التي جمعتني بكل الرجال الذين سلمتهم جسدي في الماضي واحداً واحداً قبل أن تنكسر عيناي وأدخل في حالة بكاء تشبه الكابوس. غفوتُ بدون أن أنام لأني تذكرتُ كلّ ما حدثَ لي. كنت أسمع بقلب منقبض إلى التصفيقات التي كانتْ تزداد قوتها كلما بكيتُ أكثر. دخلتْ نسمة باردة من النافذة المشرعة على وجه المدينة، كانتْ لحظتها الأمطار قد عادتْ إلى السقوط. لأمطار مراكش وقع خاص، ونزل ضباب خفيف على بناياتها.

وقف المخرج وقال بنبرة حزينة:

- كنت أتصور نفسي أكثر تعباً منك.

اقترب مني أكثر، صمت لبرهة من الزمن وركز عينيه على شفتي قبل أن يواصل:

- كنتِ في قمة الدهشة لدرجة أنني عجزتُ عن التمييز بين الخيال والواقع بين الحقيقة والتمثيل.

لمْ يضف شيئاً، لكن عينيه ظلتا شاخصتين على حركة جسدي الذي تكوم على الكرسي مثل كومة ألبسة رديئة وضعتْ في زاوية مهملة، مدّ يده وساعدني على النهوض من ذلك الكرسي ثم أعطاني منديلاً ورقياً لأجفف الدمع المالح الذي التصق بخدي، وهو يقول بنبرة منخفضة وكأنه كان لا يريد أن يسمعنا أحد:

– أريد رؤيتك على انفراد غداً على الساعة الثانية بعد الزوال في مقهى فرنسا.

أجبتُ:

– سأكون في الموعد.

عاد إلى مكانه وهو يقول بنبرة مرتفعة هذه المرة:

– الخميس المقبل سنعلن عن الأسماء التي سيتم اختيارها. وستعلق اللوائح على باب الفندق، حظاً موفقاً.

كان مخي منغلقاً، عاجزة عن ربط هذه التفاصيل ببعضها، متعبة حتى القلب. جسمي مفتت، العين لا ترى بشكل دقيق. خرجتُ من الفندق أجرّ جسدي، اخترتُ أكثر الشوارع إنارة ومشيتُ تحت زخات المطر الذي كان يرفض أن يتوقف حتى وصلتُ إلى البيتِ.

شعرتُ بالنوافذ والأبواب تغلق بداخلي، وبالرغم من الإرهاق، لمْ أنم إلا بصعوبة كبيرة، أتذكر أني أغمضتُ عيني على وجه أمي وهي تصيح في شارع البلدة البعيدة. لقد مات الحسن آيت عمور، مات سندي في الحياة. وتمسح دموعاً تحجرتْ في عينيها اللتين ابيضتا منذ أن غيبت الجبال العالية عظام أبي.

***

المشتهي هذه المرة مخرج سينمائي مشهور، بينه وبين رجل الأعمال عداوة قديمة يرجع تاريخها إلى سنوات طويلة مضتْ. هذا كل ما أعرف عن الموضوع. قمتُ باكراً على غير عادتي المألوفة، بالرغم من ثقل عيني والتعب الذي كان يكبل كل حركاتي ويبدأني من مفاصل العظام. ومع

ذلك كلّه، كان شيء ما، في داخل قلبي يدفعني إلى النهوض من الفراش. كلّ الأمور الحياتية تمشي بشكل طبيعي.

كانت الأسئلة تدور في ذهني، تتقاطع مع بعضها. خشيت أن تجرفني هذه الأسئلة الحارقة نحو الذاكرة المملوءة بالهواجس. الآن الوقتُ لمْ يكن للخوف أو الارتباك، جهزتُ نفسي كما يجب وعند الساعة الثانية والنصف بعد الزوال كنت في المقهى الذي اقترحه المخرج. وصلتُ متأخرة كالعادة. كان المخرج ينتظرني .

– آسفة، أتيتُ متأخرة عن موعدنا بنصف ساعة.

– لا تأسفي .. إذا أحببتُ شيئاً انتظرته.

تأملني. تأملته حتى شعرتُ بأنه سيلتهمني دفعة واحدة. ثم واصل بخجل:

– وإذا أحببتُ شيئاً فضلتُ الانفراد به. البارحة لمْ أتقبل فكرة أن يشاركني أحد في النظر إلى لمعة عينيك. ولذلك طلبتُ أن أراك على انفراد، كي أغرق على مهل في عمق صمتك.

جلستُ مرتبكة، أمام فنجان قهوة وزجاجة كوكاكولا وقلتُ:

– قررتُ اليوم أن أتخطى عتبة الصمت معك.

ردّ وهو ينتقل من دهشة إلى أخرى:

– ولماذا معي؟ ولماذا اليوم بالضبط؟

– لأنك مخرج سينمائي كبير. ولأنني سئمتُ من الصمتِ وثقله.

ردّ وكأنه لمْ يصدقْ ما سمع:

- للأسف أنا لا أمنحُ الفرص بهذه الطريقة. ولا أوزع الأدوار هكذا عبثاً.

استفزني كلامه، رحتُ أتأمله مدهوشةً، وأنا أحاول أن أضع شيئاً من ترتيب في أفكاري. وقبل أن أجيبه أضاف قائلاً:

- رغم أنني أعجبتُ كثيراً بما ...

لمْ أترك له الفرصة لينهي كلامه. ضحكتُ وقلتُ:

- أنا لا أطمح إلى التمثيل أمام عدستك. وليس لي الرغبة في أن أصير ممثلة. أنا هنا لأحكي لك قصتي. لأنني متأكدة أنها تصلح لتكون فيلماً أو مسلسلاً.

رد بشيء من الفضول:

- ولكن من أخبرك أنَّ قصتك مهمة لهذه الدرجة؟

حاولتُ أنْ أتهرَّب من سؤاله الذي يستدرجني بحيلة إلى مزيد من التوضيح. أجبتُ بمزاح غائب:

- اسمعْها أولاً ثم احكمْ بعد ذلك.

- تفضلي أنا مستعد لسماع قصتك الغريبة إلى آخرها.

كان في عينيه فجأة شيء ما جديد، كنت سعيدة أن أثير فيه الفضول لسماع قصتي لمْ تكن قبل تلك اللحظة مهمة بالنسبة له. رحتُ أتلذَّذ بذلك الاهتمام المفاجئ. شعرتُ أننا في بداية شيء ما. وأننا كلينا على عجل. ولذا لمْ أتعجب كثيراً عندما قال لي:

- أدعوكِ للعشاء هذا المساء في بيتي لأسمعك كما يجبُ وعلى مهل.

قلتُ بسعادة من ربح الرهان:

- موافقة طبعاً.

كان عندي إحساس ما أنني سأخلق بداخله الرغبة في الانفراد بي أكثر. وسأجعله على مقدار كبير من اللهفة لمعرفة قصتي. وسيكون لنا متسع أكثر للحديثِ. وجدتُ في دعوته اعترافاً بإعجاب سري وبرغبة مشتركَة في تجاوز اللقاءات المكشوفة التي تتم في المقاهي أو المطاعم. وحتماً من أجل الوصول إلى تفاصيل رجل مثله أحتاج إلى غرفة مغلقة وسرير دافئ.

أحسست لحظتها أنّ الوقتَ قد أصبحَ مناسباً، لأقص أخيراً على أحدهم حكايتي دون حرج أو خوف. شعرتُ أنني على بعد خطوة من البوح الذي لطالما اشتهيته في تلك السنوات الماضية ولكنني لمْ أجد من يسمعني.

***

جاء المساء بارداً ..

التقينا عند الساعة التاسعة في بيته. خبأ دهشته بصعوبة عندما رآني أقف أمامه بكامل أنوثتي. وقد ملأته سعادة فجائية تشبه سعادة الفراشات الليلية التي تلتصق بزجاج القناديل المشتعلة.

أنظر إليه بعينين غارقتين في المبهم. يتصيدان الفرصة ويبحثان عن أجمل حيلة تنتهي بنا في سرير واحد. فسحة كؤوس الشمبانيا المتتالية قادتنا نحو دفء جميل لمْ أجربه من قبل. لمْ يكن بحاجة إلى إقناعي ولمْ أكن أنا أيضاً بحاجة إلى إقناعه، وجدنا أنفسنا فجأة على سرير واحد رغم ذلك القلق الذي كان يملأني ويملأه.

أخذ أصابع يدي ومصها واحداً واحداً كما أردتُ، اكتشفتُ أن على رؤوسها الناعمة منتهى الحواس والمتعة، نمتُ على ظهره وقدته إلى حواف الشهوة. وأسميته في تلك اللحظة المشتهي.

نمتُ على صدره مستلقية بلذة، ثم همستُ بكلمات سرعان ما اندفنتْ في عمق الليل:

- كنت جميلاً ونبيهاً. في الحقيقة لمْ يسبق لي أن مارستُ بهذا الانتشاء.

– أنت امرأة جميلة وندية وممتلئة بالفتنة والدفء والأشواق.

قالها بعفوية. وربما بآلية تعود عليها كلما انتهى من التغلغل في جسد امرأة. صمتُّ قليلاً وأنا أعبثُ بشعيرات صدره. ثم همستُ مرة أخرى بصوتٍ بالكاد يسمع:

– هل أنتَ على استعداد لسماع حكايتي أيها المخرج العظيم؟

– طبعاً. لكن قبل ذلك. يجب أن أحضر زجاجة الشمبانيا.

كم كنت حمقاء حين قررتُ فجأة أن أقص حكايتي على رجل عرفته للتوّ. كنتُ دون أن أدري، أوقظ داخلي جرحاً كان نائماً منذ ثماني سنواتٍ. اكتشفتُ يومها قدرتي على المشي فوق الوجع دون أنْ أتألمَ.

قضينا معاً وقتاً طويلاً ذلك المساء. شربتُ الكثير من كؤوس الشمبانيا. ودخنتُ بعض السجائر. ورحتُ أحكي له قصتي المثقلة بالهزات النفسية، والانفعالات المتطرفة. قلتُ له الكثير وسط دموعي المكابرة أحياناً ووسط صمتي المخيف أحياناً أخرى. كان يستمع إليّ بانبهار وبمتعة. كانت قسوة الكلمات وحدها ترتشق في عينيه. شعرتُ برغبة قصوى في البكاء على صدره، لكنني لمْ أرد أن أثقل عليه بدموعي. فبذلتُ جهداً كبيراً كي لا

أجهش بالبكاء بين ذراعيه وتتهاوى عظامي الواقفة. عندما رشفتُ الرشفة الأخيرة من كأس الشمبانيا، شعرتُ بآلام حادة في ذاكرتي وبدمعات ساخنة تحرق خدي.

شعرتُ للحظة أنني أقف أمام الرجل الذي يستحق أن أبكي وأضحك معه. وكان هذا أروع ما اكتشفته ذلك المساء. واكتشفتُ أيضاً أنه ما يزال ثمة أمل في أن أحب من جديد. ولكن رحتُ أقاوم حضوره الذي كان يوقظ مشاعري التي قررتُ أن أدفنها في عمق صدري ذات نوبة حب باكر.

كنت خائفة من أن تتحول تلك الأحاسيس العابرة إلى فتيلة تشعل البراكين النائمة. روحتُ أقاومه بحواجز وهمية أضعها بيني وبينه كي لا أسقط في عشقه أنا التي قررتُ أن أحرق قلبي وأقفل جميع الأبواب والنوافذ التي يأتي منها الحبّ. كنتُ خائفة من أن أعيد نفس التجربة التي جمعتني بالأستاذ.

صمتتُ. تبعثرتْ الكلمات التي كانتْ قبل قليل حرة على لساني. بدا كل شيء ضيقاً بما في ذلك الغرفة التي كنا فيها. تمددتُ أكثر على جسده بكل طولي، ووضعتُ أصبعي على فمه. قبل أن أتمتم مخترقة عينيه:

– سأعترف لك بشيء .. في الواقع لا أنكر أني أعجبتُ بك. لكنني خائفة من الغوص عميقاً فيك. تسكنني الهواجس وذاكرتي ممتلئة عن آخرها بالخيبة.

– صمت للحظة ثم ضحك كمن اكتشف سراً مبطناً وأجاب:

– امرأة شهية مثلك أي رجل من السهل جداً أن يسقط في عشقها. وأن تتحرك في دمه وتملأ كل حواسه. شعرتُ معك بدوار التيه الجميل والتمادي في غيّ الجنون الذي يحرر الجسد من كل خوفه وماضيه وعقده.

ابتسم ثم حكّ على رأسه وواصل حديثه:

– لك جمال موتر ومربك ...

ظل يتمتم بأحلى كلمات التلاشي، وأنا أستمع إلى همس قلبه وحواسه، ونسيتُ من بالي تماماً المهمة التي كلفتُ بها، منذ تلك اللحظة الغامضة التي ضيعتني فيها لغته لمْ أستطع أن أتفادى سحره وحضوره وكلماته المختارة بعناية كاتب. هذا الرجل مثل الذئب قد يأكلني يوماً ما ويأكل نفسه بلا أدنى تردد، أدركتُ ذلك من عينيه، بحواس امرأة تشم الخطر من بعيد وتحفظ جيداً ملامح المشتهي، تركته يتكلم بكل حرية، كان في حالة سكر طافح، وفجأة غاب وجهه نهائياً أغمض عينيه ونام.

بدتْ مراكش حفنة منزلقة من الأنوار. شلالات من الضوء الهارب الذي يتسلل من النافذة وينعكس على الحائط مشكلاً موجات ضوئية تشبه السحاب. خرجتُ إلى الشرفة رأيتُ البنايات المتراصة والأضواء المتلألئة وظلمة الأحياء البعيدة. تساءلتُ في تلك الخلوة العابرة ما الذي قادني بشكل أعمى نحو هذه المتاهة؟

لا أعرف كم من الزمن مرّ وأنا متسمرة أراقب ضباب الليل الذي محى كل شيء مخلفاً وراءه عالماً هلامياً بلا وجه ولا حدود. شعرتُ ببعض البرودة أغلقت باب الشرفة وعدتُ إلى الغرفة.

همستُ في أذنه في جو نصف مظلم وأنا أعرك بهدوء عقب السيجارة:

– هل نمت بهذه السرعة؟

لمْ يرد. كان غارقاً في نومه، تسللتُ من الغرفة مرة أخرى كالسارق، مشيتُ على رؤوس أصابعي كي لا أوقظه. وصلتُ إلى الحقيبة فتحتها ببطء

ثم سحبتُ منها آلة التصوير ثم عدتُ إلى جانب السرير. اقتربتُ منه قليلاً كان مضطجعاً على بطنه وعاريًا تماماً. التقطتُ له مجموعة من الصور بسرعة كبيرة ثم أعدت الكاميرا إلى مكانها وتمددتُ بجانبه. أغمضتُ عيني المتعبتين وتهاديت في مهاوي نفسي، ولمْ أعد أسمع شيئاً سوى صفير القطار وهو يشق الظلمة بقوة كبيرة، ساحباً في إثره الأنوار في خط مستقيم.

شعرتُ بارتعاش يعبر جسدي مثل الصعقة الكهربائية، لا أدري سبب ذلك الشعور لكنني كنت مطمئنة، شيء في داخلي كان على قناعة بأن قصتي مع هذا الرجل لنْ تنتهي عند هذه النقطة ولنْ يكون رجلاً عابراً فقط. وأن الحياة ستكتب لنا موعداً آخر في يوم ما. وعندما يأتي ذلك اليوم لنْ أكون العاهرة الرخيصة التي تبيع جسدها ولنْ يكون المشتهي الذي يتصيد الفرص.

لمْ أعرف كيف مرّ الليل، في الصباح غادرتُ بيته دون أن نتفق على اللقاء مرة أخرى، تركنا كل شيء للصدفة، لمْ أسأله هل أعجبته قصتي؟ وهل تصلح فعلاً لتكون فيلماً كما أتوقع؟ حين ودعته لحظتها، نظرتُ إليه بعينين دافئتين، رأيتُ وميضاً يخترقه ويتمادى في عمقه حدّ التلاشي، أردتُ أن أسأله على الأقل عن سرّ ذلك الحضور الذي أسرني، لكنني لمْ أفعل، ودعته ولمْ أسأله عن أي شيء يخصه. وكأنني بطريقة ما كنت أعرف عنه الشيء الكثير.

انطفأتُ بعدها كالبرق، ولمْ يتبقَّ مني سوى علامات باهتة مرسومة على عنقه وصدره وفوق شفاهه، ولمْ يتبقّ منه سوى توقيع بأحمر الشفاه مكتوب على صدري والقليل من رائحة جسده في عمق رئتي وعلى مسام جلدي.

هذا الرجل يملك قوة غريبة تصعد بك عالياً، وتغرقك في تفاصيل قصة لا بداية لها ولا نهاية. وكلما حاولت التقرب منه أكثر شعرت فجأة أنه يخبئ شيئاً خطيراً، وهربتُ منه دون أن التفتَ إليه.

***

في نفس ذلك اليوم، التقيتُ برجل الأعمال في أحد المقاهي سلمته الكاميرا. وسلمني مفاتيح الشقة وعقد البيع. وطلب مني أن أسافر إلى مدينة الرباط في هذه الفترة وأنتظر اتصاله.

بعد ذلك اللقاء بيوم واحد توجهتُ إلى مدينة الرباط، ومعي مبلغ من المال ومفاتيح شقة. تركتُ مراكش وتركتُ معها جزءاً من ذاكرتي وهفواتي وجنوني وقطعتُ وعدًا مع نفسي أن أبدل مصيري وحياتي. وأنسى كل ما حدث وأنسى تلك الصدفة العابرة التي ملأتْ خوائي قليلاً.

أنا لستُ عاهرة، أنا مجرد امرأة وجدت نفسها بالصدفة في المكان الذي كان يفترض ألا توجد فيه. وبالصدفة أيضاً وجدتني أبيع جسدي لكل عابر.

أنا لستُ عاهرة رخيصة. قسوة الحياة هي التي جعلتْ مني فريسة سهلة في متناول الجميع. لمْ أكن أحلم يوماً أن أصير هكذا. كانت لي أحلام شاهقة بطول الجبال التي كبرتُ فيها. كنت أشتهي أن أخرج ماماس من القهر والبؤس والبرد الذي كتب عليها، وأمنحها الحياة الدافئة والهادئة التي تستحقها بعيداً عن تلك الفجوة العميقة التي تسمى أجدير.

أنا لستُ عاهرة. أنا مثل عصفور صغير أسقطه قناص ماهر من أعالي السماء، فسقط على الأرض كاشفاً عن جراحات عميقة.

المشتهي
كلاكيت ثاني مرة
المشهد VI
النهاية

مرتْ خمسة أشهر ونصف ولمْ يصلني من رجل الأعمال أية مكالمة هاتفية. قضيتُ هذه الفترة في ترتيب حياتي. حاولتُ أن أضع بعض الأهداف الجديدة، ورسمتُ لنفسي طريقاً آخر.

مرت الأيام بشكل متواتر، لمْ أنتبه لها إلا متأخرة. كان الزمن وتسارع الأحداثِ والوقائع تجري بسرعة. وفي هذه الفترة التي تبدو قصيرة للغاية، تعرفتُ على المشتهي الأخير. الذي طلب الزواج مني ووافقتُ طبعاً على طلبه. ولكن ...

الوطن اليوم

سيارة مسروقة من فيلا رجل أعمال تقود لاكتشاف جريمة قتل بشعة

"كشفت مصادر جيدة الاطلاع لـ"الوطن اليوم
أن المصلحة الولائية للشرطة القضائية بولاية أمن مراكش أحالت، قبل يومين
ستة أشخاص، ثلاثة منهم في حالة اعتقال، على أنظار النيابة العامة
المختصة بمحكمة الاستئناف، على خلفية اتهامهم بارتكاب جريمة قتل
في حق رجل الأعمال الشهير م.ن
ورمي جثته في بئر. وبعد استنطاقهم من طرف الوكيل العام
أحالهم على قاضي التحقيق بنفس المحكمة من أجل استنطاقهم
تفصيليا حول التهم الخطيرة الموجهة إليهم
والتي تتعلق بالقتل العمد والتعذيب وإخفاء جثة والتنكيل بها
قبل أن يقرر قاضي التحقيق متابعة ثلاثة متهمين منهم في حالة اعتقال
اعتبرتهم التحريات الأولية المنجزة لدى الضابطة القضائية
.والنيابة العامة وقاضي التحقيق متهمين رئيسيين، فيما تقررت متابعة المتهمين الثلاثة الآخرين في حالة سراح
وبالعودة إلى تفاصيل الواقعة المثيرة
«أكدت مصادر «الوطن اليوم
أن تحريات أمنية باشرتها مصالح الشرطة القضائية بولاية أمن مراكش
.حول مداهمة فيلا مملوكة لرجل أعمال ينحدر من منطقة زمور

ولكن هذا الخبر الصادم أفسد عليّ الفرحة. وجعلني أقف عاجزة عن فهم ما حصل وما سيحصل في الأيام القادمة. موت رجل الأعمال بهذه الطريقة الموجعة والمخيفة نسف كل شيء بداخلي دفعة واحدة. في نفس اليوم اتصل بي شخص مجهول الهوية على الهاتف الثابت وهددني بالقتل إذا

لمْ أسلمه تلك الصور. تهديده دفعني إلى ابتلاع ذلك الكلام الذي كنت أنوي قوله. شعرتُ لحظتها أنّ الموت قريب مني جداً، وأن الحياة ليستْ بالبساطة التي ظننتها.

في الحقيقة أنا لا أملك أية صور ولا أعرف ماذا أفعل. أنا الآن في ورطة كبيرة لمْ أكن أتوقعها مطلقاً، ولمْ يبق أمامي سوى أن أكتب قصتي وأنتظر الموت على عتبة الباب أو على حواف الشبابيك.

هذا مجرد جزء صغير من حكايتي المملة التي لمْ تنتهِ بعد، والأغرب هو أنني أعلم تماماً كيف ستنتهي، من المحتمل أن أُقتل على يد ذلك الشخص المجهول في أية لحظة.

لماذا لمْ أترك لنفسي أية مساحة للعودة إلى الوراء؟